لوحة الرّسم
- 1-

استطالت أظافري من جديد !.
حين انتبه لي أبي ، نطق بأمرٍ عسكريّ ، وقال :
هات المقصّ ، وتعال !.
قصّها لي جميعاً . كان يرغي ويزبد ، ومع كلّ ظفر يسقط ، أطلق عبارةً ساخرة :
أظافر البنات !، ينقصها اللون الأحمر !، وأنت لا تستحي !، أيّ قذارة !. أيّ فجارة !. والمعلّم ، ألا يراك ؟! كيف يراك إن كان مثلك ؟!. أمك التي دلّلتك !، وأفسدتك !. يا لعين ، يا خبيث !.
وراح يلهث !.
لم أنبس بحرف . صرخت ، حين قرض المقصّ لحم ظفري ، فصرخ بدوره ، اخرس !. وختم القصيدة !. مازلت أحفظها !.

كان فيلم الكرتون قد خلب لبّي !، أرجل الشيطان مثل قوائم البقر ، وعيون الساحرة الحمراء ، وبطلنا ، نحن الأطفال ، يتمتّع بأظافر قويّة حادّة ، خمش بها وجه الشيطان ، وفتك بأعوانه جميعاً !، مستخدماً الأظافر !، والأظافر فقط !.

هذا منتصف الليل ، وأشعر بالألم . لم أنم بعد !.
يدقّ الوخز في ظفري كنبض القلب !. أخوتي ممدّدون أرضاً بالتوازي ، يغطّون في سباتهم ، بالشخير العالي !. سيمفونية مكرورة ، أدمنت عليها . فإذا توقف العزف صدفةً ، انتابني الأرق ، أو أفزّ من نومي ، كأنها الكوابيس انهالت علي !.
أطرافهم مبعثرة ، عيونهم مغلقة . بأنفٍ وفم يعزفون !.
باستطاعتي التمييز في أصواتهم ، هذا الحادّ الطويل ، لأخي الصغير ، كلّما خرج يلعب في الشارع ، نادى أبي عليه ، وأهداه كفّاً على وجهه !.
أخيراً ، اشترى له دراجة عجفاء من سوق الخميس ، شرط أن يدحرجها في باحة الدار !. فتغيّر صوت الشخير عنده !. بالكاد اعتدت عليه !. كان الإيقاع مديداً ، وانتهى متقطّعاً غير منتظم . يدفع ساقيه ، من حين لآخر ، للقيادة ، ويداه على مقود وهميّ في الفراغ !.
قالت أمي ، أملنا ، في انقطاع شخير الولد مستقبلاً ، مع درّاجة ناريّة !.

لا أحبّ الدرّاجة مطلقاً ، يتشاجر فيها أخوتي وأستغرب ، أقول ، علام الشجار ؟!. لو أنها كرّت في المنحدر ، لذهبت عجلة شرقاً ، وعجلة غرباً ، وسقط الدرّاج على رأسه . نعم مفيدة ، وهي قوية ، لها محرّك ، تقطع مسافة طويلة ، وتصعد الجبل . أما أن تهوي في قاعٍ سحيقٍ ، وصعوداً يجرّها الراكب جرّ الحمار ، فشيء آخر . لهذا أقول ، يا للهول ، علام شجار المجانين !.

أخي الأكبر مني بقليل عامل مناضل ، يساهم في بناء الأسرة ، مثل أبي تماماً ، عمله بيع الدّخان المهرّب في الشوارع !. لهذا يمتلك ساقين قويّتين ، يطلقهما للريح ، ساعة يرى الشرطيّ أمامه . نحترمه كلّ احترام !.
أخيراً ، حصل على الجائزة الأولى من رئيسه ، وحمل صندوق تبغ مختوم لأبي . فأشعل الأب سيجارة طويلة ، وذهب ينفث الدخان في متعةٍ فيما يرنو إليه . قال له :
أنت رجل البيت ، ورمز العائلة ، وابن أبيك ، أيها الصنديد !.
وحفظت مقطوعة جديدة !.
منذ ذاك ، تغيّر شخير الولد أيضاً !. وكان عليّ التأقلم مع إيقاع جديد !.

أخواي الكبيران ، في عمر واحد ، هما توأمان !.
ومع ذلك لابدّ أن يكون سنّ واحدٍ أكبر من الثاني ، ولو للحظة ، ذاك الذي سقط أولاً ، وملأ الدنيا بالصراخ !. هذه مسألة عذّبت أمي كثيراً . إذ طالما واجهت ذات السؤال ، من الأكبر ؟!. ومن سقط أولاً ؟!، وكم فارق الزمن ؟!. أخيراً ، قرّرت ، رداً على كلّ فضوليّ ، أنه الثرثار ، سقط يزعق ، وغطّى على قرينه ، ما أورثه الصمت الأبدي !.
مرّةً ، كنا في هرج ومرج ، حول مشكلة السنّ هذه ، من فيهما الأكبر ؟!. فطلب أخي الرّاكض أن يكشفا عن الأسنان للفحص !، ونشبت معركة ، فاختار الصّموت الانسحاب ، حيث أدلى بأذنيه وغادر !. لكن أبي ، على عادته ، يبادر في التدخّل ، دعماً للدّخان المهرّب :
وما المشكلة ، يا صفيق ؟!. ألا تفرّق بين مزحٍ وجدّ ؟!.
عبارة شعرية أخرى !.

الصموت لايغضب أبداً !. بالأحرى ، لا يعرف الصراخ ، ولا الثرثرة !، بارد صامت ، يخربش بقلمه في أيّ مكان ، الكتب ، الدفاتر ، الحيطان ، وباب المرحاض !. إن لم يجد شيئاً ، يملأ كفيه بالغرائب ، وما علينا نحن سوى فكّ الرموز الهيروغليفية !.
مرةً ، اكتشفت أمي صورة فتاة في جعبته ، وأرادت أن تعرف من الفتاة !. لم يجب !. فألحّت عليه . عندها ، مزّق الصورة نتفاً صغيرةً ، بعثرها أرضاً ، وغادر لا يعقب !.
رسخ المشهد في ذاكرتي . لأعرف ، من تكون الفتاة ، ولماذا لم يجب أخي ، وما المشكلة ؟!، حاولت مراراً ، ورجوته ، فلم يجب . أخيراً يئست !. قلت في نفسي ، من هذه الفتاة ؟!، وأين تسكن لأحزن عليها ؟!، لا أعرف ، ولن أعرف أبداً !.

أبي من باعة الرصيف ، يرجع كلّ يوم منهكاً ملويّ الذراع ، فمرةً يبيع ، ومرةً لا يبيع . أو تصادر الشرطة بضاعته !. قليلاً ما يفتح لنا قلبه !. والنتيجة واحدة !. منزعج ساخط ، يصرخ لكلّ هفوة !، فلا نستطيع البقاء أمامه ، نتركه للنوم ، ونمضي الوقت خارجاً !.
مرةً ، انتبهت له ، كان يسقي الورد ، ويقطر الدمع من عينيه !. لن تذهب الغصّة من صدري أبداً ، تهزّني الرعشة كلّما تذكّرت ، أفكّر ، ما كان أبي يسقي الورد وحسب ، بل كان يسقينا !.
حين يعضّه حزن ، لا يهدّئ من روعه إلاّ بائع الدخان ، يقعده في حجره ، ويمسح على رأسه بالأنامل !.
مرةً ، كان مثقلاً بالهمّ ، فاستثنى أخي هذا ، وصبّ علينا الشتائم كلّها ، ناعتاً إيّانا بالكلاب المسعورة ، والخنازير !. كلام لا أنساه :
ما الفائدة منكم يا أوغاد ؟!. ماذا تدرسون ؟!. اللؤم والخبث ؟!، حتى تصيروا موظفين قذرين ؟!، وتصادروا الناس أشياءهم ؟!، وتقبضوا الرّشاوى ؟!، وتسرقوا ؟!، وتظلموا ؟!. سوف نرى ، نبّاً لكم !.

مرّةً ، قصّ على أمي حادثة ذاك اليوم ، عندما صادروا البضاعة منهم ، وصرخوا في وجه الشرطيّ ، ما أبقيتم لنا ؟!، ماذا نعمل ؟!. قال لهم الشرطيّ ، اعملوا قوّادين . فاستنفروا ، وبصقوا عليه بصقة رجلٍ واحدٍ . فارتعد ، وذهب منسحباً إلى أقرانه !.

ما زال الألم ينخر في ظفري !..
شكل النافذتين مستطيل ، ينتهي من أعلى بقوس في شكل ظفر ، أصبعان مرفوعتان ، والباب ، كالإبهام ، أكثر ثخناً وانخفاضاً ، قوسه الأعلى في شكل ظفر أيضاً !. كان الليل يغدق على باحة الدار بالظلام ، ويرخي على النوافذ ستاراً أسود !.

وشعرت بالنعاس فغفوت !..

وثبت قبالة بحر ناصع أزرق !. يهبّ عليه النسيم رقيقاً جذّاباً ، فيلوي السطح ليّ البساط . ثم ، من حين لآخر ، يصعد الماء لأعلى برأس حوتٍ واثبٍ متلفّتٍ جاحظٍ ، ويعود أدراجه !. لكن واحداً ضخماً اشرأبّ يلوي ، ثم توارى جارّاً بذيله !. جعلت أغوص عميقاً خلفه ، إلى أن استقرّ ، فمكثت أمامه !.
أعرف خبثه ، مما شاهدت في أفلام البحر ، يربض كالطّود فاغراً فكّيه دونما حركة ، بينما السّمك الضّالّ يلج إليه ، ولا يخرج أبداً !.
راقبت المشهد كلّه !.. دخولاً بلا خروج !، ثم انطباق الفكّ ، فبلع وهضم !
وماذا بعد ؟!.
أطلقت صفرةً بفقاع وثّاب . ثم أردت التقدّم ، ولكن ، لا أظافر !. ومازال الفكّ يبتلع !. فخلجت له بيدي ، أن توقف !. ثم بدأ التقدّم في اتجاهي !. عندها انسحبت إلى شعاب مرجان أسطوريّ كثيف ، كغابة محميّة ، تخطر فيها أسماك ملوّنة جميلة في خيلاء !. تقابلت اثنتان ، مع كلّ واحدة لوحة رسم !، وتبادلتا قبلات وهمساً ، ثم مضت كلٌّ في سبيلها !. اقتربت واحدة ، لتشمّ أصابعي . فأبطأت لدى الظفر المقروض كي تقبّله ، وشعرت بصاعق ناريّ !. بسرعة خاطفة ، شرعت أصعد أعلى وأعلى ، حتى ثقبت سطح البساط الأزرق مندفعاً خارج البحر والنوم !.
وجدت الألم يدقّ في أصبعي ، وعلى النافذة فتح البدر نفقاً في الظلام !.
مازالت جوقة العزف تعمل !، وتنقر الساعة في الليل ثواني وقتٍ بطيء رتيبٍ ، اتّساقاً ، مع نبض القلب والألم !. لا يزال الفجر بعيداً ، تحمّ العتمة دون اكتراث !.

قمت أمشي !. وجلست عند الحوض ناظراً البدر !.
كان يتسلّل نقيق الضفادع من خارج ، ويئزّ جندب قريب . الجوّ رطبٌ ، وأريج الورد يبثّ شعوراً بالخدر !.
دارنا الجميلة بحاجة لأجر شهريّ !، جميلة !، لكنها بحاجة لأجر شهريّ !.
حتى وإن أحاطت بها كومة الزبالة ، خط دفاعنا الورد !. أما البعوض الغاشم ، فله عندنا كلّة تصدّه !.
المشكلة هي في الأجر !. ولكن أين نذهب ؟!، كيف نترك هذا الحيّ ونذهب ؟!، الجيران ، الأصدقاء ؟!. لا أستطيع هضم الفكرة !.
عندما حملت ، لجارنا العجوز ، طبق الحساء ، شعر بلحظة صدق عنده ، كل ما لديه أليف متواضع !. مكوثه الطويل وهو يقرأ ، زجاج نظّارتيه السميك ، والكتب القديمة الجميلة مصطفة فوق الرفوف بعناوين مرصّعة بالذهب !.
يعمل كل شيء !، من تجليد وترتيب ، وعناية بالأزهار ، وترميم ، وتقليم للشجرة !. أمّا الهرّ المدلّل فلا عمل له ، يأخذ مكانه المفضّل على كرسيّ قشّ واطئ ، ويراقب ما يجري في فضول !.
مرةً ، حاولت دفعه عن الكرسيّ كي أجلس ، فنهض يقاتل ، ويفحّ كثعبان ، لمّا كررت المحاولة ، انهال بمخلبه الحادّ !. لا يتدخل العجوز في شجارنا . ومنذ تلك اللحظة ، لم أعمد إلى طرده ، أمّا إن وجدت الكرسيّ شاغراً وجلست ، فهو يحترم ذلك حتى أغادر !.

في دار العجوز باحةٌ سماويّة ، وشجرةُ برتقال تضوع برائحة العطر ، تحطّ العصافير عليها ، وتشدو بلا كلل ، لكنها تدفع ضريبةً باهظة !. حين لمحت عصفوراً في فم القط بدأت أمقته !، وقلت هذا للعجوز . قال :
يا بنيّ !، أطرح عليّك سؤالاً ، لماذا نمقت هرّاً رأينا عصفوراً في فمه ، ونرى الصيّادين أبطالاً ، قلائد الطيور على خصورهم مختالين فخورين ؟!، كما لو أنهم خاضوا المعركة بنصر مظفّر ؟!. قلت للعجوز ، لا أراهم أبطالاً !. قال ، حسناً ، أنت لا تراهم أبطالاً ، فهل تعرف كيف يراهم الناس ؟!. لم يجب على قطٍّ أن يكون حكيماً من ذوي الحكمة ؟!، أو ملكيّاً أكثر من ملك ؟!.
لم أفهم جملته الأخيرة ، ومع ذلك وافقت على رأيه !.
أحدث العجوز تحوّلاً في حياتي !. أحبّبت كتبه ، التواشيح ، شعره الصوفيّ ، التلاوة ، الطاولة الصغيرة ، الهرّ ، شجرة البرتقال ، والعصافير حين تغنّي ، أو تسقط صرعى في فم القطّ !.

يوم الجمعة ، لا نهدي العجوز طعاماً . يأتيه الأبناء والأحفاد حاملين الهدايا ، أراه سعيداً بهم ، لكنه قلقٌ وحذرٌ ، من خطر داهم على الزهور والزجاج والكتب . مرتبك في التحدّث ، كونه يراقب الصغار ، هنا وهناك !. يعرفهم جيداً !. بالنسبة لهم ، هي رحلة اكتشافٍ ومغامرةٍ ، ولا يأبهون لشيء !. أجد معهم فرصة اللهو ، حيث الأرجوحة المعلقة ، والصخب !، فالعصافير تصدح ، والأطفال يصرخون !.

مرّةً ، قرع العجوز ناقوس الخطر دون جدوى !. أخيراً ، هزّ منكبيه ، وخرج بعكازه يصرخ ، ما هذه الضجّة ؟!. ما هذه الفوضى ؟!. رفع العصا أقصى ما يستطيع ، وألقاها في الخلاء حتى خرسنا !. هذا كاف ، إنه

يعرف خصمه ، سمّاه بالاسم ، وعاد مكانه . وضحكنا . لكن الخصم لم يضحك !. وجاء صوت العجوز مهدداً من جديد ، هل أرجع ، هل أرجع ؟!. إن عدت ومعي العصا !. ستهبط على واحد منكم لا بدّ !. لم ينفّذ العجوز تهديداً قطّ !. أما الكبار ، فهم لا يتدخلون في حال الطوارئ !.

قمت باتجاه الأزيز أبحث عن الجندب ، وقلّبت الأحجار واحدة بعد أخرى ، فلم أعثر عليه !. ما إن تركت المكان حتى استأنف الجندب الغناء !. لكنني اكتشفت صوتاً آخر !. هناك جندبان خبيثان ، متواطئان يتبادلان الصوت ، للتمويه !.

رفعت غطاء البئر ، وألقيت حجراً ، فحدث دويّ عاد برجع الصّدى . حملت كمشة حصى ألقي واحدة بعد آخرى ، حتى أخذ الألم يهدأ في ظفري ، وقررت العودة للنوم !.

مازال العزف دائراً !. وغفوت ، في كنف الجوقة من الإرهاق حالاً !.

لا أعرف إن كنت أصدر الشخير !. سألت أمي مرةً . قالت ، كلكم تشخرون ، وأنت عازف في الفرقة لا تحزن !.

* * *

إلى السوق!..

ركضت على خطا أبي ماسكاً يده ، كانت قد أوصته أمي بشراء حذاءٍ لي ألف مرّة . كانت الأسباب قاهرة ، وكلّ مرة هناك مشكلة !. الدائنون خلف الباب ، وفواتير الماء والكهرباء ، وموسم المؤونة يوشك على النهاية ، والأسعار ترتفع ، والفرصة تضيع يا ولد !.

ويذهب الوقت ، ويبقى الوعد المؤجّل !. تشقّق جلد الحذاء ، وظهر ثقب فيه ، حتى بزغت أصبعي الصغيرة في الهواء ، وبلي النعل ، بينما تغمز أمي لأبي ، وأبي يهزّ الرأس :

هل تحسبينني أعمى ؟!.

الشعر كلّ مرّة ، والقصيدة إيّاها !.

اليوم يثب على قدميّ الأمل !. فيما نقطع درباً ترابيةً ملأى بالحفر !.

كانت الريح تدفع الغبار ، والعجاج يضرب وجهي والحدقة ، حتى بالكاد أحطّ قدمي ، فاحتكاك أصبعي في حافّة الثقب مع كلّ خطوة أصابها بالورم ، وصارت حمراء !، ألقيها في جهة ، فتأخذ جهةً أخرى ، وأفقد التوازن !. تعثّرت مراراً . والنتيجة ، كنت بواحدة ، فصرت بإثنتين !.

لم أقل شيئاً لأبي ، خوفي من ردّ يصدر عنه !. ومازال يعطي الأوامر ،

انظر موطئ القدم جيداً ، امشِ في استقامة !.

ويزمّ حاجبيه :

لا أراك إلاّ مطرقاً ، وتهبط في الحفر !. أما تراها ؟!.

نعم لا أراها !.

قلت له ، لنأخذ سيارة إذاً ؟!،

فقال ، أكاد أجنّ !.. تريد أن تركب سيارةً ، أم تركب حذاءً جديداً ؟!،

فسكتّ لم أكرّر !، أيّ مقارنة هذه ، بين حذاء وسيارة ؟!، بيت شعر آخر ؟!.

حين أسمع أبي يراوغ في الحديث أو يناور ، أقول في نفسي ، يا ربّ !، ماذا أفعل ؟!. ماذا أعمل ؟!، قلت له ، دعني أعمل !. بنظرة ساخرة ، قال ، ماذا تعمل ؟!، قلت له ، أيّ شيء !، ماسح أحذية ، بائع تبغ ، أو بوظة !.. كما يعمل الأولاد !. ردّ ردّاً صارماً ، بل تبقى في المدرسة !. لم أتمالك نفسي ، شعرت بالغضب ، وقلت له ، هل لأنّي مجتهد في المدرسة أصبحت مجرماً ؟!، فقام يبحث عن عصا ، ولجأت إلى أمي أحتمي بها !.

كان الحاج العجوز على حمار هزيل !. وزيادة على الثقل فوق حماره ، علّق حبلاً يشدّ كبشين ضخمين ، و ينتع الكبشان الحبل بقوّةٍ !، ما أزعج الحمار فحرن جامداً لا يتحرك ، والعجوز فوق ظهره ، يسبّ ويلعن !، عندما شرع بوخز الحمار في المؤخرة ، ترنّح الحيوان يمنةً ويسرةً ، فأيقن العجوز بالسّقوط لا محالة ، ورفع الصوت طالباً النجدة !.

هبّ أبي رافعاً ذراعيه إلى الجنبين ، وراء الكبشين ، وهشّ عليهما بلطف . ففعلت مثله ، واستأنف الموكب الملكيّ سيره !.
قال أبي ، لو أنّا طاردنا الكبشين في فوضى ، لنسفا العجوز والحمار معه !.
وفعلاً ، سار الحمار ، وجنح الكبشان للطّاعة !.
أبعرا على أقدامنا شكراً !.

ثم صادفنا رجلاً ماشياً ، على معرفة بأبي ، ناداه باسمه ، وراح يتحدث عن هذا العجوز الهرم ، صاحب الكبشين .
قال ، يستعدّ العجوز للحج مع زوجه ، لهذا هو اشترى الكبشين !. سألته ، عادةً ، الأضاحي تكون هناك يا عم !. قال ، بل عندنا جائعون كثر !.
استباقاً للموت ، اشترى قبرين فارغين ، له ولزوجه ، سطّر عليهما الأسماء دون تاريخ ، وهو منذ ذاك ، يزور القبرين ، ليقرأ الفاتحة على روحه وروح زوجه !. هيّأ كلّ شيء ، وهو في سباق مع الموت ، حتى أودع المختار الوصيّة ، بانتظار عزرائيل العزيز !.

هزّ أبي رأسه وقال :
وهل تظن السباق مع الموت شيئاً يسيراً ؟، أصبح أكثر كلفةً منه مع الحياة . فهل تعرف بكم اشترى العجوز القبرين ؟!، سنقذف يوماً ما إلى مقبرة بعيدة ، فلا نزار !. ونغترب في حياتنا وموتنا ، حتى تبقى المقابر القريبة للمقرّبين !.
ضحك الرجل موافقاً ، وشعرت بالفخر ، كون أبي ينطق بالحكمة !.

حين خلوت به ، سألته ، وما يهمنا بعد الموت ، زاروا أو لم يزوروا ؟!. قال ، بل يهمنا يا بنيّ !. حين يزورون موتاهم يزورون أنفسهم ، تاريخهم ، ماضيهم !. هل فهمت ؟!.
فهززت رأسي ولم أفهم !. ينطق بالشعر ، والآن بالحكمة أيضاً !.
حتى الشعر لا أفهمه ، لتزيد الحكمة !. يكفي ما يصمّ الآذان ، مواسم الحزن والبكاء !. قلت له ، ربما لا يحبون البكاء !. فقال ، يبكون على أنفسهم !. أما هذه ، يبكون على أنفسهم ، فلم أفهمها أبداً مطلقاً !. آثرت الصمت كي لا يغضب ، كرمى لعين الحذاء . ثم لا أنسى أنّي في الدرب وحدي ، وأين أمي كي أحتمي بها ؟!.

حين دخلنا دائرة الكهرباء ، استوقف رجل أبي ، وقال له ، إن احتجت شيئاً فأخبرني !.
وفي مكتب الدفع استنكر أبي المبلغ كلياً ، رفض تسديد الحساب ، واقتحم مكتب المدير ، ليقول له :
نحن لا نستهلك هذا القدر كله ، غير معقول !.
هزّ المدير رأسه وقال له ، اعترض !. ولكن ، يجب الدفع أولاً !.
عاد أبي وأقسم له أغلظ الأيمان ، أننا لا نستهلك بهذا القدر !. لكن المدير استوقفه ، وبابتسامةٍ خبيثة قال له :
يا مواطن !، لا تضع وقتي ، هذا هو القانون !، ادفع ، ثم اعترض !.
كانت وراءه الصورة الضخمة تضحك !.
كان الحقّ مع أبي ، لأن امرأة عجوزًا كانت في مكتب الدفع تبكي ، وتسأل الموظف ، من أين جاءها المبلغ الكبير ، وهي غائبة عن بيتها أكثر من سنة ؟!. كان الموظف يكرر لها ما يقول المدير ، ادفعي واعترضي !. تقول له ، يا سيدي ، من أين أدفع ؟!. خمسة آلاف ؟!. يكرر ، يا ستي ، هذا ليس شأني !. أنا مثلك !. لا تضيعي وقتي ، أرجوك !.
أصبح وقتهم ثميناً !. حتى هذه الدرجة !.
وجدنا الرجل ثانية ، في الخارج ، كانت عينا أبي تقدحان بالشّرر ، وقال الرجل ، لنعطه شيئاً ما يسدّ حلقه !. فقال أبي ، لا !.

*

سوق الخميس !.
هنا كان أبي يعمل . أحفظ من ذاك العهد ما جاء على ذكره . كان يقول ، إذا ما ازدهر السوق يا بنيّ ، تراه مثل متحف خلاّب ، يضمّ الفن واللّقى والكتب القديمة ، كل شيء !. وإذا ساء انحطّ مع ظرف الناس في

شقائهم ، وصار كومةً من زبالة وحطام وألبسة عتيقة بالية ، وكالعادة ، في أسوأ حال ، تجد فيه اللآلئ مهملة مرميّة ، لا قيمة لها !، بينما هناك ، مرصّعة في أقفاص !.
اليوم ، يطفح السوق بالزبالة !، لكن بعض الأشياء تبقى . وأبي يشرح ، ماذا يعني هذا !.
ينضح بالحكمة هو أيضاً !.

من هنا ، اشترى أبي أشياء ، وباع أشياء !.
أخيراً ، قرّر بيع ثريّا النحاس ، كي يدفع فاتورة الكهرباء ، وأوشكت أمي على البكاء ، فالثريا ذكرى جدتي ، التي باعتها لأحد الأقارب في ظرف عصيب ، وقد تخلى عنها ، من بعد ، لتعود إلى كنف العائلة .
أمي لا تنسى تراثها هذا ، وتفخر !. صارت الثريا أيقونة في سجلّها الذهبيّ !.
لا أعرف جدتي إلاّ في الصورة ، ومع ذلك دافعت عن أمّي ، وقلت له ، تستطيع بيع شيء آخر !. فصرخ بي ، اخرس أنت !.
لا بدّ أن دمعها قد أثّر فيه ، أو صعقه قولي ، فعاد يقول لها ، إذاً قرّري ، الثريّا ، أو فالمروحة ، أو الخزانة !.
وشعرت بالنصر ، فخرجت أضحك !.
لم تكلّل أمي هذا النصر بالغار . ولم تجبه أصلاً !. جاءت تنام في غرفتنا هاجرة إياه ، كما يُهجر البعير !. ما أسعدني !. بل اعتبرت الحدث نصراً ، حيث راحت تقصّ لنا حكايات مرحة ، قبل النوم !. وأخوتي يتساقطون في شخيرهم ، واحداً بعد آخر ، لأبقى وحدي ، بعين جاحظة !. حتى هي ذاتها تغفو على حكايتها ، وأسهر !. أستعيد الحكاية ، من البداية ، لأسرح معها وأمرح !.

لم تستمر تلك الحال طويلاً !. ليلتين !، وسرعان ما جاء مطرقاً يقول لها ، لن نبيع شيئاً !.
اكتشفت السرّ !.
منذ ذاك ، كلما وقع في ضائقة ، جئت أقدّم له النصيحة ببيع شيء ما ، فيصرخ بي ، اخرس !. وترنو أمي شزراً ، بعين زوراء !.

أبصرت لوحة الرسم في السوق ، عبارة عن فتاة جميلة بعصابة رأس حمراء ، وثوب مزركش ، الذراعان عاريتان ، وتعلّق شالها الأزرق بين كتفٍ وخصر ، وقد أرخت عليه أصابع طويلة . أعجبتني ، وظللت أحدّق إليها في عبورنا أمام الواجهة ، حتى ارتطمت بالمارّة ، وانتهرني أبي ، فلويت . ثم انعطفنا مع آخر السوق ، جهة اليمين ، لنرسو عند بائع الأحذية !.
بعثر أبي الكومة كلّها ، والتقط واحداً ، من النوع الرياضيّ ، وجدته أنيقاً مريحاً ، فوافقت عليه.
وانخرط أبي في صراع مع البائع حول السعر !. لكن البائع قلب الحذاء رأساً على عقب ، وأراه العلامة الفارقة :
- هذا إيطاليّ ياصاحبي !، وليتك تعرف ما الحذاء الإيطاليّ !.

وجد أبي السعر غالياً ، وجرّ بيدي كي نواصل السير . لكنني رحت أشدّه في قوة !، كما فعل الكبشان بالعجوز وحماره فعلت به ، فترنّح الرجل يمنةً ويسرةً ، ثم استدار إليّ :
- وبعد !.. ماذا تريد ؟!.
- الحذاء !.

عدنا ، وأقسم له البائع من جديد ، أنه مضطر للبيع ، ولولا هذا لطلب بالسعر ضعفين !.
- يريدون إخلاء السوق يا صاحبي ، هل فهمت ؟!.

عندما سمع أبي عبارة ، يريدون إخلاء السوق ، دفع الثمن ، وانهمك في حديثٍ هامس مع البائع ، طال الحديث وامتدّ حتى مللت . وجدت الفرصة كي أمتطي الحذاء ، فحملت عليه ثقلي ، ومشيت عجرفةً أختال جيئةً وذهاباً خلال السوق !. لم أشعر بحصى الطريق ، و خفّ وزني ، مثل ريشة تطفو على المياه !.
ولم ينه أبي الحديث بعد !. فذهبت ، ووقفت صوب اللوحة متأمّلاً من جديد !. ربّما استطالت وقفتي ، فسمعت البائع العجوز يقول :
- أراك تهوى اللوحة !. اشترها !.
- بكم ؟.
- بمائتي ليرة !.
- سأسأل أبي .

- قل له ، لو لم يكن العجوز مضطراً لترك المحل ، لكان السعر ضعفين !. مفهوم ؟!. قل له هذا !.
- سأقول .

عدت أرمق اللّوحة !..
افترّت شفتاها بابتسامة أكبر !. وتحرّكت الأصابع على بعضها !. عيناها الخصيبتان مالتا للذبول ، وانتبهت للبائع يقول !.

- أين أبوك ؟!، هل تكذب عليّ ؟!.
- يحادث بائع الأحذية .
- اذهب وآت به إذاً !.

مررت بخيام الباعة ، ووجدتهم غاضبين ، ملتمّين في حلقات !، أحدهم يلفّ سيجارة برماً بالأصابع ، وآخر تهزّ يده بكأس الشاي الثقيل ، وآخر يجهر بالصوت ، ثم يهمس لهم !.
في الخيمة المحاذية عجوز وحيد ، يستمع لأسطوانة سوداء ، من ذاك العهد ، بصوت محمد عبدالوهاب ، ويهزّ رأسه !.
يا ظالم لك يوم !..

انعطفت صوب الصفّ المقابل ، فلمحت أبي والبائع مازالا منهمكين في الحديث . اقتربت وأنا أخبط الأرض بقدمي !، فلم يأبه أحد ، عدت إلى اللوحة ، ومكثت . كان العجوز يحادث زبنه ، لا أذكر كم من الوقت مضى ، حين شعرت بأبي يربّت فوق رأسي !.
وخاب ظنّي !. لم يوافق على شراء اللوحة !. ترست قدميّ أرضاً ، مستعيناً بالحذاء ، وكما فعل الكبشان فعلت ، فتوقف أبي كلياً !. وهنا ، تدخّل البائع ، فقال له ، اشتر اللوحة للصبيّ بسعر مخفّض !. اغتنم الفرصة !. لم يكترث أبي !. قال لي ، تعال أشرح لك !.

قال :
- لو رأتها أمك ، لصرخت ، وقالت ، بسبب اللوحة ، لن تدخل الملائكة بعد اليوم بيتنا !.
- قل لها ، ابنك هو اشتراها !.
- لن تعرف مسؤولاً غيري !.
- وما عساها تفعل ؟!.
- تهجرني شهرين ، يا صاحبي ، وتنام عندكم !.
- أعلّق اللوحة ، فتهرب إليك ، هي والملائكة !.
- آه !.. بهذه السهولة ؟! لعلك تحلم !. عندها ، ستخلع اللوحة ، وتقذف بها في وجهي ، ثم تنام هادئة البال !.

ما استطعت إقناع أبي . ظللت طول الطريق مطرقاً صامتاً أفكّر !. الحذاء ، هو ما خفّف عني . صارت مشيتي مريحة ، وسكن الألم . والشخير لا بدّ أن ينتهي !. أما مسألة اللوحة ، فهي هناك ، عند أمي ، سأقول لها أولاً ، سأكون رسّاماً ، ما رأيك ؟!، وأرى !. إن وافقت ، وهزّت رأسها مجاملة ، عندها ، أغتنم الفرصة ، وأطرح موضوع اللوحة !. فهل يمكن لها أن ترفض شراء ها ، بعد الموافقة ؟!. لا أظن !. وإن ذكرت موضوع الملائكة ، سأقول لها ، ما رأينا ملاكاً يدخل بيتنا قط !، فلماذا نلقي اللّوم على لوحة ؟!.
أسمعت أبي تلك الخواطر ، لكنه تضاحك ، وقال :
- طيّب ، لا علاقة لي بالأمر !، أقنعها ، وأنا في صفّك !.

لكنه ما إن دخل الدار حتى صرخ بصوته ، ابنك يريد شراء لوحة ، حتى يصبح رسّاماً !.
تجاهلت أمي هذا ، وقالت له ، حسناً فعلت بشراء حذاء مستعمل ، وفّرت لنا بعض النقود !.
ثم لمّا جاء موضوع اللّوحة ، قام أبي خارجاً ، ليقول ، إنه على الحياد !. لكن خطتي فشلت سلفاً !.
وراحت أمي تصرخ ، يا ولد ، يا ولد !. أما ترى ؟!، لا نقدر على دفع الفواتير ؟!.

قلت لها :
- وفّرت لكم ثمن حذاء جديد !.
- وماذا يعني ؟!. تريد أخذ ما وفّرت ؟!.

- أريد اللوحة !.
- يا ولد !. يكفي !. لنشتر الخبز أوّلاً !.
- وما رأيك أن أصبح رسّاماً ؟!.
- رسّاماً ؟!. لو قلت ، طبّالاً ، لأثلجت صدري !.
- طبّالاً ؟!.. يثلج صدرك ؟!.
- طبعاً !. لنرقص على الطبل حين نجوع !. هيّا احمل ذيلك ، وافتح كتاب المدرسة !.

نظر الصّموت في الحذاء ، فأدلى أذنيه ، وهزّ رأسه ، ثم خرج !.
بعدها سرّب الثرثار لي رأيه ، لو ظلّ حافياً الدهر كلّه ، لن يقبل بحذاء قديم ، أكل الزمان عليه وشرب !.
قلت للثرثار ، كي يصل للصامت قولي ، طبعاً !. وهل يليق حذاء مستعمل بواحد مثله ، يخوض امتحان الكفاءة ، بشعر لمّاع ، مفروق في الوسط ، ؟!. أبداً !. ثم لا نعرف ، هل ينجح أم يسقط !. إن نجح ، ويا للهول ، سيستحق حذاءً جديداً ، وبالكعب العالي !. وإن سقط ، فعليه قطع الدرب حافياً !. قل له هذا !.
لو عرفت الفتاة ، صاحبة الصورة ، لأريته ماذا أفعل !.

وقال أخي بائع الدخان ، هذا جيّد للركض !، ولدعس أعقاب السجاير !، إن لم تحبه أخذته منك !. أما الصغير فامتطاه ، وقال ، هذا كبير عليّ !.
قلت له ، قل ، هذا كبير على رجلي !.

*

بطبق الحساء ، إلى العجوز !.
هناك شكوت له أمري !. فارتشف العجوز جرعةً ، وقال ، من وراء نظّارة سميكة :
اسمع يا بنيّ !. تريد أن تصبح رسّاماً ، أليس كذلك ؟!. قلت له ، نعم !. قال ، وما المانع ؟!، أن ترى لوحةً ، في سوق الخميس ، وتحتفظ بها في قلبك ، فهذا يكفي !، ألا ترى أن الله لا يعطي كلّ شيء ؟!. يدلي لنا بحبل أو خيطٍ ، كلٌّ على حجمه ، وما علينا إلاّ مسكه ، بانتظار حمار ، أو عصفور !. يجب أن نعمل شيئاً ما !، أليس كذلك ؟!. أعطاك الله حبّ الرسم !، ورأيت في السوق لوحةً أعجبتك . فأردتها . لكن أباك أبى ، وطرح المسؤولية على أمك . وأمك رفضت !. وحرت أنت بينهما !، من المسؤول ؟!. فما العمل ؟!. اطرح كل شيء جانباً ، وضع اللّوحة في رأسك وارسم !.
أما سمعت بقصة طفل جاءه كتاب هديّةً ، فرسم له لوحةً ، وعلّق أرجوحةً يرتجح فيها ويقرأ ؟!. يا للطفل !. كن مثله !، ألا تحبّ هذا ؟!.
قلت ، بلى !.
قال ، إذاً هيّا !، ماذا تنتظر ؟!.

لكن الأرجوحة عند العجوز !.
في اليوم التالي ، رسمت طفلاً يقرأ كتاباً ، على أرجوحةٍ معلّقةٍ بشجرة !، الأطفال من حوله ، والبرتقال المدلّى ، والعصافير ، فتحت لها مناقيرَ مشرّعةً ، حتى تغرّد عالياً ، وحملتها إليه ، كي أسمع رأيه !.
أعجبته جداً !. وقال ، يالك من رسّام !، اهدني إياها !. ففعلت !. لقاء هذا حملت كيساً من البرتقال ، لنصنع منه الشراب !.
مازلنا نرتجح عند العجوز كلّ مناسبة !. والقانون واضح :
إن سقط شيء ، فهو جائزة المرتجح !. غالباً لا تسقط الشجرة شيئاً . فنطلق الأرجوحة بقوة ، وتهزّنا بعنف ، ولا تسقط !. في الربيع ، تميل أغصانها ببراعم نابتة ، فيما العصافير تنطّ هنا وهناك وتصدح ، والشمس ترمي شعاعها المتدفّق الذهبيّ خيوطاً متكسّرة ، تلفّ العيدان وتمتدّ ، وأصص الورد أمامنا ، عند قدم الحائط ، في الحوض الدائر ، وأسراب النحل تحوم ، نخافها !. لكن صغارها لا تعمل ، تلهو وتلعب . لا تلسع الأطفال !. النحل ذكيّ ، لا يسمح لأطفاله بالعمل أو التدخين !.

كتبت هذا في موضوع الإنشاء ، قرأته على الصف في عيد الشجرة . عندها ، أمر المعلم الطلاب أن يصفقوا ، وشعرت بالفرح !. ثم نلت الدرجة الأولى ، ثم الترقية ، وصرت عريفاً للصف ، يقدم التحية ، بالصرخة العالية ، للمعلم حين يدخل ، وينهض الطلاب وقوفاً !. لكن المهمّة بتسجيل أسماء المشاغبين لم تعجبني !. قلت للمعلم ذلك . فتجاهل قولي ، كأني لم أقل !.

كنت سعيداً ، أسترق فرصة الراحة ، لأصرخ مع رفاقي وألعب ، أو أملأ اللّوح خربشةً ، أو أمزح وأضحك وأركض !. لم يعد باستطاعتي فعل ذلك ، حملت غصباً عبء وقارٍ زائفٍ ، ومسؤولية !.

زاد الطين بلّة ، مجموعة الزعران ، من أصحاب الرؤوس الكبيرة ، حين ساقهم المدير من الصف السادس إلى الأول ، وخاطب المعلم قائلاً : هؤلاء الأوباش ، وصلوا الصف السادس ، وهم لا يكتبون سطراً دون أخطاء ، همّهم الضحك والثرثرة !. إذاً ، مكانهم هنا !، شدّ يدك عليهم ، حتى يتعلموا الأحرف من جديد !.
واستحال الصّفّ جحيماً !.
والمهمة طبعاً ، رفع الأسماء للعصا والعقاب !.
في رأس القائمة الزعران !.
والنتيجة ، ضرب ، وحقد ، فكيد ، وانتقام !.

وجدت أحدهم في المراحيض مرةً ، عند المبولة ، في الجرن المجاور ، فاستدار ببوله صوبي ، وقال ، خذ يا ابن بائع الأرصفة !، فقطعت بولي وخرجت . أسوأ ما عرفت !. لم أخبر أحداً بذلك . ثم بدأت تظهر على الأبواب والجدران رسوم خليعة بذيئة ، وكلام قبيح ، واسمي بينها !. لم أخبر أحداً . كل ما فعلته ، بما أني العريف ، أخبرت الآذن !. كان متعاطفاً معي ، وقال لي ، نعم ، صارت المراحيض أشبه بمرسم أو مكتبة أو برلمان !.
لكنه ، ما إن يمسح جريدةً خرقاءَ حتى تظهر لنا أخرى !.

عرفت النحس والقرف !. هذا ما أكسبتني إيّاه الدرجة الأولى !.
صبّت عليّ البول والهموم ، أشبعت نومي كوابيس رهيبةً !. حتى صرت أشخر أقوى ، وأسمع الصوت في نومي !. وحين الأشباح تقرض لحمي ، أصحو مجفلاً أصرخ !. لو كنت أعرف هذا ، لكتبت غير ما كتبت ، وقلت ، الشمس رعناء ماجنة ، وخير لنا الغابة ، والظلام . نرى في أغصان الشجر أصابع رعب ، ونغني لها ، نحن طعامك الشهيّ ، الفاكهة المبجلة ، فهيا يا وحوش ترجّلي . ويردّ الكورس الحاقد ، نحن مسامير أحذية الأشباح ، أنياب الموت والغيلان ، واثبون إليكم بالخطى اللعينة ، فانتظروا !.

أخبرت أمي بذلك ، فجاءت إلى المدير وشكت له . وصدر القرار بطردهم من المدرسة ، حيث انضموا إلى أولاد الشوارع .
ظننتهم حاقدين !. لكنني ، بعد ذلك !، كلّما صادفت واحداً ، قدّم لي شكره !.
وأردّ على الشكر ، لا شكر على واجب !.

مازلنا في عيد الشجرة !.
لدى العجوز ، نصف باحة الدار من إسمنت ، ونصف من تراب . فإذا سقط البرتقال هنا تدحرج ، وطارده الهرّ وثباً بالمخالب حتى يقف !. وإن سقط فوق التراب ظلّ مكانه . تقاعست بالعمل مأخوذاً بشغفٍ في مشاهدة الهرّ ، كيف يثب منقضّاً باليدين كلاًّ على برتقالة ، يلتفّ يمنةً ويسرةً ، ثم ، في سرعة البرق ، ينسحب تجاه واحدة شاردة . وهذا الذيل الطويل المنفوش ، يطّاير خلفه ، كما لو أنه فرس يحارب !.
وصرخ العجوز ، من فوق الشجرة ، هيا للعمل !. الأمر موجه إليّ ، لأن القط يعمل !.
لكنني أحببت العجوز وقطه والرسم والبرتقال !. أما نصوص الإنشاء والمدرسة ، فلهما شأن آخر !.

والصّموت، طالب الكفاءة ، والشعر اللمّاع ، يحبّ نفسه !.
جرع كأس العصير حتى أبقى ربعه ، ثم أدلى بأذنيه وخرج !. فترجم لنا الثرثار معنى هذا ، وقال ، طبعاً !. طلاّب الكفاءة المحترمون !. لا يليق بهم جرع الكأس إلى آخره !. وإلاّ اعتبروا نفسهم من سوقة الناس ، قبل أن يعتبرهم أحد !.

كنا على الطعام مرةً ، وسيد السفرة ديك مشويّ . دون كلمة ، بإشارة الأصبع ، أفهم أمي أنه يريد الفخذ ، فأعطته إياه . التقطه بالشوكة ، وراح ينهش دون لمس . ما أزعج أمي ، فصرخت به ، امسك الفخذ جيداً يا ولد !.
وتبرع الثرثار بالتفسير ، قال ، هكذا يأكلونه في أوروبه !، قالت له :
هكذا يأكلونه ؟!. والعظمة ؟، ألا يخرجونها ؟!.
والصموت صامت !. ما كان منه ، حين نشب الشجار ، إلاّ أن أدلى بأذنيه ، ثم ترك الطعام ، وغادر !. وخيم الهدوء !.
لأكسر جدار الصمت ، قلت ، آهٍ لو كنت أعرف صاحبة الصورة !. لكن أبي ، الذي لم ينطق بحرف خلال الشّجار ، دبّ العزم فيه فجأةً ، وصرخ ، اخرس أنت !.
كنت على وشك الانفجار ، فصرخت بدوري ، لو كنت أعرف صاحبة الصورة ، صاحبة الصورة !. لأريته ماذا أفعل !.
فخمد كليّاً ، بل انفجر ضاحكاً !. وهرّ ضجيج الضحك خلفه !. كما لو أنهم كانوا ينتظرون شارة البدء !. أمي ، كالعادة ، لا تضحك !. ولم تنطق بحرف !. نظرت إليّ شزراً !.

أحضرت أسياخ الحديد ، وعققت واحداً على آخر . ثم جئت بقطعة خشب مثقوبة ، وضعت السيخ فيها ، وعققته بالطول والعرض ، حتى لاح كالعلم !. كانت أمي في ساحة الدار ، عند بقعة الظل ، تجالس جارة لها ، ويدور بينهما حديث هامس . كأن شيئاً ما يحدث !. عندما اقتربت لأعرف ، أشارت أن لا أقترب !. فإلى أين أذهب ؟!.
إلى الشارع !.

في الشارع ، ابن الجيران ، سعد ، في سنّي تقريباً ، قال إنّه ذاهب إلى المسبح ، ولم لا أذهب معه ؟!. قلت له مراراً ، لا يريد أبي المسبح !. فراح يسخر :
دعه يسقيك الحليب إذاً !. أصبحت شاباً !.

أنا شاب في رأيه ، وهو يسخر !.
كوني طفلاً ، لا أشعر بالعار !. فماذا عنه ؟!.
تطنّ في رأسي عبارة تشدّق بها ذات يوم . يسخر من أبي العامل على رصيف الشارع !. فسألته ، وماذا يعمل أبوك ؟!. قال ، في العاصمة . قلت له ، ماذا يعمل ؟!، قال ، لا أعرف !. لكنني أردت أن أعرف ، ماذا يعمل ؟!، ماذا في العاصمة ؟!. فانزعج من أسئلتي ، وصرخ ، ماذا !.. ماذا !، لا أعرف ماذا يعمل ؟!. قلت له ، ماذا في العاصمة ؟!. قال ، رح هناك لتعرف ، مافيا ، ولصوص ، مخدرات ، ودعارة !.
قلت له ، هنا يعمل أبوك ؟!.
لم يعد يسخر !.

أدركت هوّةً تفصل ما بيني وبينه ، بين طفل وشاب !. هو الذي تشدّق بكلام كبير لا يعرف معناه !. وأنا الطفل !. تركت له أن يعرف !. أرى جارنا الكهل أقرب منه إليّ ، يفهم لي ، وأفهم له !. لغة سعد مهترئة فجّة !. وهو الطفل ، أرى فيه العجوز المنحرف !. ثم أنظر إلى جارنا العجوز ، أقارن بين عجوزين ، هذا غبيّ قميء ، وذاك متألّق فكراً وكرامة !.
عدت أقول له ، حتى يفهم قولي ، إني لا أرغب في الذهاب إلى المسبح ، وأرجو له المتعة والسلامة والسباحة الرائعة الجميلة !.

انتشلوا ، السنة الماضية ، طفلاً غريقاً !.
ليس هذا فقط ما يقلق أبي . وصل إليه خبر ، عن طفل تمّ استغلاله جنسيّاً ، وطوي الملفّ ، ثم استأنف الأولاد السباحة !.
من بين الأسباب أيضاً ، ثمن التذكرة !، ما يكفي العائلة يومين خبزاً ، أو يكفي أبي علبة تبغ على الأقل !. قال أبي موجّهاً الكلام إليّ ، وإن لم نجد ثمن التذكرة ، فماذا نفعل ؟!. طبعاً ، سنجد من يتبرّع بها ، أليس كذلك ؟!. لقاء ماذا ؟!. ماذا نفعل ؟!.
قلت له ، نقلع عن التدخين !. فانفعل ، وقام يبحث عن عصا !. اضطررت للركض كي أحتمي بأمي !.
مرة ، قلت له ، تعال معي إذاً !.
كان مسترخياً ، وشارداً يدخّن !. فتفضّل بالردّ ، وقال ، بل نذهب إلى البحر ، فتح ذراعيه أقصاهما ، هكذا البحر !. فانتظر حتى نجمع بعض المال ونذهب !.

إلام أنتظر ؟!.
ما رأيته يوماً إلاّ مطموراً بالهمّ !. إلام أنتظر ؟!.
وما إن يحلّ مشكلةً حتى تحلّ به أخرى !. متى نرى البحر ؟!، أمل إبليس في الجنّة ، كما تقول أمي . زد على ذلك ، موهبة الوصف عنده ، ويملأ رأسنا أحلاماً ورديّة !. فكم من مرّة سمعته يصف البحر ، بمائه المالح ، وأجسامنا تطفو عليه ، والقوارب تمخر عباب البحر ، والفتيات العاريات ، يخطرن جماعات ووحدانى مكلّلات بالعطر . ويغطسن ، ليخرجن مثل عرائس البحر ، مبلّلات الشعر ، عامرات الصدر !. ألا تحبون هذا ؟!. ويمدّ لسانه !. ينطق همساً ، من خشية أمي !.

كلّ هذا ، حتى ننتظر وننتظر ، ونطرح فكرة المسبح جانباً . ثم لا نجد أمامنا إلاّ السراب !.
حتى لا أكذب ، نرى البحر في الصور !. أمّا متى نذهب إليه ، أو يأتي إلينا ، فلا فرق !. بعد العمر الطويل . عندها ، ربما يحملونا إليه على حمّالة ، لحظة الوداع ، في النفس الأخير . وهناك ، ربما يوافينا الأجل ، ونقذف لسمك القرش ، أو نرى مراكب الموت ، وكيف الناس تغرق !، ما يجري في أفلام الرعب ، ومصاصي الدماء !.

برامج التلفزيون لا تعجب أبي مطلقاً ، لا الراديو ، ولا الأغاني !.
قالت له أمي مرةً ، قل لي بربّك ، ماذا يعجبك ؟!. قال لها ، يا امرأة ، يا امرأة ، افهميني !، يدسّون لنا السمّ في العسل !. ثم بدأ يشدو عبدالوهاب . فقالت له ، تفضّل ألا تحبّه ؟!. كان يهمّ في الردّ عليها ، وفجأة قبل نهاية الأغنية ، انقطع البثّ ، وبدأ المذيع يرتّل الشعار المجلجل . فقال لها ، تفضّلي ، اسمعي أنت !.

ماذا يعني أبي ؟!، وماذا تريد الحكومة ؟!، لا أعرف !.
ما عرفت أبي إلاّ بيّاعاً للكلام ، كما يبيع البضاعة فوق الرّصيف . هذا ممنوع ، وهذا ممنوع !. لا أعرف ، ولا أريد أن أعرف . ما أعرفه ، هو أنّي أكاد أجنّ !، وأعيش حياة القرف والقيء ، لا أكثر ولا أقل !.

وأخي الصّموت منصت للبحر ، بحنكٍ مرخيّ وعينان فارغتان !.
سألناه رأيه فيما يقال ، فأدلى بأذنيه وخرج !. ولمّا وضعنا المائدة ناديناه ، فلم يأت !. مفهوم ، لا يحبّ طبق اليوم !. أمي هي التي قصمت فينا عادة الدّلال ، ما لا تستطيعه مع أخي هذا !. أفهمتنا ، ولم يفهم ، نحن الفقراء ، لا يليق بنا هذا !. زد على ذلك ، أنها صفة كريهة !. فإذا لم نجد المال ، ماذا نفعل ؟!. نضرب عن الطعام ؟!.
وبّخته أمي ، وهو ، منذ ذاك ، منطو على نفسه ، لا يجهر بما يريد . تقول له ، لا يعجبك ؟!، إذاً ، ابق جائعاً حتى يعجبك !. وجوابه دائماً ، الفرار !

عائلتنا المكتظّة بالذكور ، لا بنت !.
لا نعرف الجنس اللطيف ، ولا نسمع عبارة اللطف إلاّ كلما قعت مصيبة !. تقول أمي ، يا لطيف !. ويقول أبي ، يا ساتر !. وهكذا اكتسبنا الخشونة . لولا أمّي ، لكنّا في أسوأ حال . وأمي ، عندها الأوامر ، لا شيء غير ، كالمعلّم ، دع هذا ، وافعل ذاك !. نادراً ما تضحك !. وكيف تضحك بين غلمان غلاظ ؟!. إذا ما اضطرت ، وخرج شيء ما على شفتيها ، لمّته حالاً ، وألقته في بئر . أقصى ما عندها الابتسام !. مثلها الخالد ، أر الطفل عورتك ولا تره أسنانك !.
شعارها ، الأم مدرسة !.
هنا مدرسة ، وهناك مدرسة !.
مدرستان مكتظتان بالذكور ، باللحى والشوارب العريضة ، وربائط العنق ، والأعين المزورّة ، المليئة أوامر ومواعظ ، طلاباً آباءاً معلمين !.
أفضل شيء الشارع !. هنا نطلق الصراخ ، أو نضرب ، أو نغني !. وكلما مرّت فتاة ، ألقى لها مكبوت من الألفاظ البذيئة ، ما لذّ وطاب !. حتى الصموت ، تنفتح له الشهيّة ، ويتمتم !. لا أعرف ماذا ينطق ، أدسّ نفسي بين رجليه لأسمع ، فيبدأ الرفس ، بصمت طبعاً . أما الثاني ، ويا للهول ، لسانه السّليط ، وعيناه جمرتان !.
تآمر الإثنان ، بالصمت والثرثرة ، ليأخذا طريقاً آخر ، وأعود وحدي !. سمعت الثرثار يهمس للصامت : الخبيث يشي بنا إلى أمه ، فانتبه !.

وأمي الصارخة ، الأولاد لا يساعدونها في شيء !.
يعشقون الشارع !، حتى يتمنّونه بيتاً لهم !، منه يأخذون السوء والبذاءة !.

لكن أبي يعترض !. قال لها ، يأخذون ويعطون ، هل تدرين ؟!، يستبدلون عملةً صعبة من ذات القيمة !. فهل المدرسة أحسن ؟!، ما تسمعين هنا ، تسمعين هناك !.
أقرّت أمي له بذلك . فقال ، لماذا نتركهم في المدرسة إذاً ؟!. وما الفائدة ؟!. إن كان الطالب حتى البكالوريا ، لا يكتب سطراً دون أخطاء !. كان العلم في حلقة الكتّاب أفضل ، والشيخ الماسك عصاً ينقر بها رأس من يستحق !.

ردّت أمي بحدّة وغضب ، لا تذكّرني بهؤلاء ، انظر جارك العتيد ، وما يفعل في امرأته !. لو ألقت نظرةً في مرآة السيارة ، لرماها بأبشع التهم ، تغازلين السائق . ولو أحد طرق الباب ، ممنوع أن تفتح . يجب التحدّث من خلف ستار ، تحشو ا فمها بمنديل ، فصوت المرأة عورة ، يفتن الرجل العزيز !. وتعتبر هؤلاء بشراً ؟!.
قال لها ، اتركينا في المدرسة يا امرأة ، اتركينا . واسمعيهم ، من علّمهم هذا الخبث والكيد والبذاءة ؟!.

في حيّنا عائلة من بنات !. لا يخرجن للشارع ، لا يذهبن للمدرسة !.
مرةً ، رأيتهن خارجات بصحبة الأم ، للبنت الصغيرة نظرة خجلى ، وفم جميل ، والشعر مطمور في وشاح . كانت تزورنا الأم وحدها ، خوفاً عليهن ، كأننا الضباع !.
لاهثة وتبحث عن حلّ ، عن ضبعٍ واحد على الأقلّ !.
تقول لأمي في استكانة !،
بالله يا جارة ، أخبريني !، ماذا تفعلين لحمل الذكور ؟!. ماذا تقرئين ؟!. أرأيت ليلة القدر ، أم كانت أمك قديسة ؟!.
تقول أمي وهي تضحك ، كما تفعلين !.
لكن المرأة جادة ، قالت لها أمي ، لماذا أنت خائفة ؟!.
ردّت المرأة ، آه ياجارة !.. لو أن لي طفلاً على الأقل !، فمن يدري !.. ربما يكون الطلاق !.
فأطلقت أمي صوتها الشاهق ، الطلاق ؟!.
وانتبهت إلينا !.
كلام النساء ممنوع على الأطفال !، هيا ، انصراف !.

تريد ضبعاً على الأقل ، ولا تصطحب بنتاً ، خوفاً عليها من الضباع !.
ونحن ، معشر الضباع ، التنصّت ممنوع !.
لعلّ الضبع يأتي وحيداً ، لا عسكرية في انتظاره ، وتعلّق له خرزةً زرقاء بعداً للحسد !.
كي أسمع الخاتمة ، دخلت المرحاض !. كان صوت المرأتين يتسلل همساً ، بكلام فظيع ، لم أسمع مثله أبداً !.

أخبروها بشيخ مختصّ في الحبل ، فحملت الجعبة وانطلقت إليه !.
هناك ، قال لها الزاهد :
لا تعرضي مالاً عليّ ، كما فعل غيرك ، فتفشلي !.
أعطيك حجاباً باسم الله ، ثم الوصية !. أول شيء يا ابنتي ، قطّ أسود في بيتك يطرد الأشباح . ثانياً ، شيء من رميم ميّت قتيل ، مضى عليه خمسون عاماً . فاسحقيه ، واعجنيه مع زَرَق دجاجة بيضاء ، ضعيه في لفيفة كتان ، كي تُعلّق فوق النافذة أربعين يوماً !. في المدّة ، يجب المضاجعة أربعين مرة ، بالتمام والكمال . مفهوم ؟!.
افعليها ، وتعالي خذي رقية الحمل ، بانتظار الأمير الصغير ، إنشاء الله !.

قاطعتها أمي وهي تشهق :
ربي !، من أين لك رميم القتيل ، من خمسين سنة ؟!.
قالت المرأة ، مثلك ارتعبت !. سألته ، سيدي الشيخ ، القط الأسود ممكن ، ولكن ، من أين لي رميم القتيل من نصف قرن ؟!، قال ، بسيطة يا ابنتي !. أيّ رجل يعمل في مقبرة ، ضعي بعض القروش في يده ، تري حاجتك في يدك !.
ويا جارة ، سلمت روحك !.
ذهبت إلى المقبرة أجدف كبطةٍ خائفة !. من بعيد ، أبصرت الحارس متكئاً على شاهدة القبر ، وكالشبح ماسكاً عصاً !. ما إن اقتربت ، والتفت بنظارة سميكة وعينين ، واحدة كعين البعير ، والثانية كثقب صغير ، حتى ارتجفت رعباً !. كان عجوزاً !. قال :
ما حاجتك يا ابنتي ؟!.

عرضت حاجتي .
من أرسلك يا ابنتي ؟!. قلت له ، امرأة في الحيّ لا تعرفها !.
وراح يفكر !.
أخيراً هزّ رأسه ، وقال ، يا امرأة !، شيء صعب !. هناك مسؤولية ، ومخاطر !. أسأل لك صاحبي إن أردت . ثم لا أعرف إن كان لدينا قبر بهذا الوصف !. تعالي غداً ، وخذي الجواب !.
وعدت غداةَ غدٍ يا جارة !.
قال الحارس ، أبشري يا ابنتي !، ما تبحثين عنه موجود . الأمر سرّ بيننا طبعاً ، يجب الحذر ، كونه ينطوي على مسؤولية !. عندنا فم كبير يجب سدّه !. وهذا الفم ، لا يسدّه شيء صغير . هل أنت مستعدّة ؟!.
كم يحتاج يا سيدي ؟!.
خمسة آلاف !.
شهقت !، خمسة آلاف ؟!، لقاء رمّةٍ صغيرة ؟!. يمكن استخراجها في ربع ساعة ؟!.
قال :
في ربع ساعة ؟!. تحلمين !. يحتاج الأمر ليلةً بطولها وعرضها !. أعطيك فكرة ، انظري هناك حيث القفص الحديديّ ، عند الشجرة !، هذا هو القبر ، مغلق بقفل ومفتاح !. إذاً ، كيف نصل إليه في ربع ساعة ؟!. نحتاج لفتح نفق تحته ، نلج فيه حتى الرّميم . هل ترين الأمر سهلاً ؟!.
قلت له ، خفّض السعر قليلاً إذاً !.
قال ، كم تستطيعين ؟!.
ألفين !.
قال ، كلمة واحدة ، أربعة !، متى وجدت النقود عودي إليّ !.

ويا جارة !.
كذبت على زوجي ، وبعت قرط الذهب . قلت له ، سأقرض أختي المريضة ، حتى تشتري الدواء . ولو عرف ، الله وحده يعرف ما يحدث !.
وعدت ، أعطيته نصف المبلغ ، وحين استلمت الرمّة دفعت الباقي !.
أمّا جارتي ، صاحبة الدجاجة البيضاء ، فلم تطلب ثمناً ، كانت كريمة . وجاء الهرّ الأسود أيضاً . وكما أمر الشيخ ، ارتفعت اللفافة ، فوق النافذة ، بالخلطة العجيبة !.
ماذا بعد ؟!.. مشكلة الأربعين !.
قلت ، ما العمل بزوج غافل كسول ، مثقل بالهمّ ، ودفعه إلى الفراش أربعين مرة ، أربعين يوماً ؟!. أرفع عليه عصاً ، أو أنخزه بالمسلة ؟!.
وضحكت أمي قهقهةً !.
الآن لا طفل موجوداً ، عادت لها الحرية !.
كثيراً ما فكرت ، أن ضحكة أمي ثروة ، نحن محرومون منها !.
وأبتلع ضحكي ، فاكتشافي هنا بالجرم المشهود كفيل بقطع الرواية !.

ويا جارة !، سلمت روحك !.
عدت على استحياء أستجدي سيدي الشيخ ، ما العمل ؟!. قال ، إنشاء الله خير يا ابنتي ، أعطيك بعض الأعشاب ، اطبخيها له في الطعام !.
وفعلت !.
وسلمت روحك يا جارة !.
هبطت علينا معجزة !. وعاد الثور الكسول يفلح فلاحةً عجيبة ، يصبّ عرقاً ، وعيناه تدمعان !. حتى انتصب شعر رأسه !.
واستغرقت أمي تضحك !..
توقفت المرأة هنيهةً ، لتضحك . وقالت :
معك حق ، هذا أفضل ما في القصة ، عادت لنا ذكريات الصّبا !.
وماذا بعد ياجارة ؟!، تخيّلي ؟!. عصابة العرّاف ، ونابش القبور ، والأشباح !.
صار بيتنا قبلة الأشرار ، وانهالت الكوابيس !. أشعر بالعذاب كأني محطمة ، وبالضياع ، جامحةً شبقة !. تنهب راسي الظنون !. أقول ، الرجل الأنانيّ !، المخادع !، هل كانت له خليلة ، هل هي أجمل ؟!. أم لأني لا أنجب ذكراً ؟!، أم هو يحتج ؟!. يوسوس الشيطان في صدري ، صرت امرأةً بائسةً تعيسةً ، ولا شيء غير !.
والقط لا يفعل شيئاً !. قلت ، وماذا أنتظر من قطّ أن يفعل ؟!.. إن كان لا يقدر على فأر ، فهل يقدر على شياطين وأشباح ؟!. ماذا أيها القط ؟!. القط لا يجيب !.

وفي كلّ يوم ، كلّ ليلة ، يحضر شبح القتيل في نومي بهيئةٍ جديدة !، مرّةً ملطّخاً بالدّم ، يلقي خطابه الصّارم بالتهديد والوعيد ، ومرّةً يسخر :
هل أعجبك الأمر ؟!. هل تهنئين ؟!. امتصوا دمي حيّاً ، وجئت لتطحني عظمي ميّتاً ، فهيّا ضاجعيه بالطول والعرض ، لتهنئي أكثر !. اسمعي يا امرأة ، وقولي للزوج أن يسمع ، لا يمكن لكما الهناء على حساب الموتى ، كما لا يمكن للروح الراحة ، بطعنها في الظهر مرةً ، وطحن عظمها مرةً . قولي له هذا !، هل تفهمين ؟!.
وأصحو من نومي مجفلةً ، أزخّ العرق وأصرخ !. فينهض الرجل حتى يخفّف عني !.
أقول له ما حدث فيضحك ، خزعبلات وأوهام . كان سعيداً بالمعجزة ، حريصاً كلّ الحرص ، أن لا تفلت من يده !.

في الليلة التالية ، يعود الشبح منشرحاً ، منبسط الأسارير ، ويقول ،
حسناً يا امرأة ، لا يهمّ !، إن تطحني عظمي كي يأتي طفل صغير ، فلا بأس !. إني انتهيت ، ولا حقد لي أبداً ، بل الأمل في الطفل ، أن يملأ دنياك حبوراً !. وصيتي ، أن يرنو يوماً ما إلى البدر المضيء ، وإلى الشهب ، لعلّي أكون فيها !، أن يسمع صوتي في الريح العاصفة !. ويلمس دمعي في قطر الندى ، سآتيه مع النسيم ، لأمسح له شعره !.
حسناً يا امرأة !، لا يهمّ !، اهدئي !، ولتنم روحك في سلام !. عليك السلام !.
ويغيب!.
وأصحو يا جارة سعيدةً مطمئنةً ، يغمر الفرح قلبي !.
أخبر الزوج ، فيضحك ، ويقول ، صار صاحبك الشيطان !.

في الليلة التالية ، سأشهد معركةً فظيعة ، كأني أمام فيلم ، ويخوض البطل القتيل حرباً مع الأشباح ، في فضاء وسيع ، الشهب في يديه ، وفي فمه الصواعق ، يثب ، هنا وهناك بعيداً ، في لمح البصر ، من غرب لشرق ، ومن شمال لجنوب ، حيث القلاع تدمّر ، والجيوش الجرارة ترتدّ على أعقابها ، وتسقط فلول العدو في الجحيم !.
وأصحو يا جارة ، ألهث من خوفي ، لا أعرف ماذا يحدث !.

مضى أسبوع ، ونحن في منتصف الطريق ، رصيدنا عشرون نقطة !.
بدأ الرجل يصفرّ ، وينتابه الرعاش ، وخارت قواه كليّاً !. قلت له ، توقف !. ماذا يحدث ؟!. أنت تموت يا مسكين !.

وقع في هذه الأزمة مرتين ، وأصبح على حافّة الموت !.
الأولى ، عندما فارقت أمه الحياة !.
كان قد تعذّب معها عذاباً شديداً !. باع كل شيء ، واستدان المال . مدّ يده إلى من يعرف ، ومن لا يعرف ، أوشك على التسوّل من عبء العلاج !. وهي تبكي ، وتبكي ، وتهذي !. تصرخ فيه وتشتمه !. ثم غداة غد نراها تحنّ ، وتدعو له بالرحمة ، وتبكي !. صار بائساً مثل هيكل عظميّ !، يدعو الله أن يقبض روحه ، حتى يخلص !. حين ماتت ، كان ينازع الموت بدوره !. وأنا حائرة ، ماذا أفعل ؟!، الرجل يموت أمامي ، وأبكي ، في المطبخ ، في الحمام . ألمّ الأطفال من حولي ، ونبكي ، لاشيء عندنا ، للعلاج ، أو الطعام !.
وفي ليلة ظلماء حدثت معجزة !.
قمت أرى من يطرق الباب ، وإذا برجل لا أعرفه ، أسلمني رسالةً ، ومضى في سبيله !. ما هذا ؟!. مبلغ مال كبير ؟!.
أحضرت له الطبيب ، وبدأنا العلاج ، حتى بدأ المسكين يصحّ !.
في الثانية :
عندما شارك في احتجاج ضد الحكومة ، عندها ، حدثت مجزرة !. وأطلقوا النار عليهم !. جاء بالدم على ثيابه ، لكنه لم يُصب . ساعد في نقل المصابين وإسعافهم !. بعضهم لفظ الأنفاس الأخيرة بين يديه . قال ، في المعركة ، لم يلفظ دمعةً واحدةً . لمّا عاد وخلا بنفسه ، ذهب يشهق بالبكاء كطفل صغير ، يعرفهم ، منذ ساعة ، كانوا يصرخون ، وانتهوا في غمضة عين ، كأنهم ما جاؤوا للحياة قطّ !. همسُهم في سمعه ، لهاثهم يأتي من بعيد ، يخفّفون عنه ، يقولون ، لا تحزن ، نحن في خير !. قال كلمةً لا أنساها أبداً ، صرنا في وقت ، يواسي فيه الميّت حيّاً ؟!. إذاً ، من منّا الميّت ومن الحيّ ؟!، قطّع لي قلبي ، وأبكي ، الأطفال يبكون !. كأن الصاعقة حطّت علينا !. لمّا استعاد السكينة ، راح يصف لنا ، كيف سقط الضحايا ، وهم من ورائهم ، يجهزون على الجرحى !.

وحشية ما بعدها وحشية !، وهم مسالمون عُزّل ، لا شيء لهم سوى صوتٍ غاضبٍ مجلجل !. أخيراً ، حملوا الجثث في شاحنات صغيرة ، كما لو أنهم نعاج أو قمامة !.
وسقط في المرض الشديد ، حتى أيقنت بموته !.
بعت كلّ شيء لأجله !.
وعدنا للحصير من جديد !.

عاد الرجل ينازع الموت ، والشيح ، كل ليلة ، يصرخ بي ،
ضاجعيه ، ضاجعيه !.. ألا تريدين طفلاً ؟!. ضاجعيه !..
قلت ، هذا الشرير !. وضعت حدّاً للمهزلة ، وأوقفت كل شيء !.
يا جارة ، قلت ، إن خسرت الرجل ، فمن يضمن لي أن لا أخسر الطفل ؟!. بل من يضمن لي مجيئه ؟!، النتيجة عشرون !. فكيف نكمل ؟!. سألته ، ماذا يحدث ؟!. قال ، هذا القطّ النّحس ، من أين أتيت به ؟!. جاء وجاءت معه المصيبة !. قلت له ، لا عليك ، بسيطة . هيا عزيزي القط !. فتحت الباب ، وهيّا تفضّل غير مطرود !.
أنزلت اللفافة اللعينة ، رميتها في الزبالة ، رميت الأعشاب !. وأسدلت الستارة !.
لأسرع في نجدته ، بعت الأغراض بربع القيمة !. حتى أخذ يصحّ شيئاً فشيئاً ، والحمد لله !.
وعدنا للحصير من جديد !.

أحدثت جارتنا صاعقةً فيّ!.
تمنيت لو كنت قرب أمي أستمع ، وعرضت عليها بيعي لتلك العائلة الكريمة !. لما حدث ما حدث ، وسقطت المرأة في يد الأشرار . ولجاء الثمن !. هم يدفعون فواتير الكهرباء ، أو ربما الإيجار لسنةٍ مقدّماً ، وأنا أسرح مع البنات وأمرح !. لعلّي أرتاح من الصمت والثرثرة !. لو حدث ، وتشجيعاً عليه ، كنت سأنصح لهم أن يكتبوا في العقد شرطاً أساسيّاً :
على الولد زيارة أهله مرةً في الأسبوع ، يشاطرهم فيها الحياة والعمل !.
ولكن ، من يجرؤ على الاقتراب من أمهاتٍ منكوباتٍ ، أو سماعِ ما يدور لهنّ من فظائع ؟!. سيبقى هذا سر الأسرار للأبد ، لا يجرؤ عليه أحد !.

* * *

وطفح الكيل !..
قلت للثرثار ، عيب عليك ! ثم احتدم الشجار !..
انضمّ الصغير القزم وبائع الدخان إلى صفّي . في المقابل ، كان التوأم ، الصامت يرغي ويزبد ، والثاني يطلق البذاءة !. تطور الأمر للضرب والرفس . أمّا الثرثار فصار وحشاً خالصاً ، وجه لي لكمةً ، وسقط الدم من أنفي . لكنني أحكمت قبضتي ، وسدّدت له ضربة قوية ، ترنّح بعدها ، وكاد يسقط لولا أن تركته . كان باستطاعتي تسديدُ ضربةٍ قاضية ، ولم أفعل !. أسائل نفسي اليوم ، لم لم أفعل ، وتركت الوحش حتى استعاد وعيه ، وانقضّ كالثور الهائج ؟!. كنت أنزف ، ولم يهتمّ ، رغم حجمه ، وصغر سنّي !.
كان الصموت يضرب بصمت ، ويرفس بصمت !.

وركضت أمي بالصراخ رافعةً السبابة في وجه كلّ واحدٍ ، بالتوبيخ ، والتهديد والوعيد !.
كان صوتها يخالط البكاء ، وتقول ، نحن السبب في مصائب الدنيا !.
يا كلاباً مسعورة !. يا لئام !..
من تحسبون أنفسكم ؟!.. خارقين لا يقدر عليكم أحد ؟!. أين تظنّون أنفسكم ؟!، في صحراء ، أو في غابة ؟!. مثل الوحوش تتهشون بعضكم !. هيا تأكلوا إذاً ، ماذا تنتظرون ؟!. لو كان لكم ذرّة من خجل لاحترمتم أنفسكم !. وفكرتم ، وعقلتم ؟!. ألا تنظرون ما يحدث من حولنا ؟!. كيف حبس الله المطر ، والأسعار نار ؟!، واللقمة المغمّسة بالدم ؟!. أنتم سبب اللعنة ، لعنة الله عليكم !.
وراحت تجأر !.

ظلّ الصّموت يرغي ويزبد ، ويهزّ رأسه مطرقاً في الأرض !. والثاني يصبّ اللوم كلّه عليّ !. وأنا طريح لا أستطيع الكلام !. صرخت فيه أمي ، إخرس !. وألقت يدها تجرّه من شعره حتى ركّعته أرضاً !، ومالت على الثاني بصفعة قوية !. وصرخت ،
هيا اغربوا عن وجهي !.

شالتني إلى الحمّام ، وألقت الثياب عني . مع تدفق الماء الساخن ، ويداها تدلكان وجهي وفروة الرأس ، استعدت النشاط !. كنت أعي بالكاد ، فأخذت أتمتم ، قلت لها ،
هل تعرفين ما فعل الحقير والسافل ؟!. يتآمران ، وينصبان لي فخّاً بعد آخر ، ومع ذلك ، ماذا يفعل الثرثار ؟!، لا همّ له إلاّ المكائد !. يرصد فينا كلّ شاردة وواردة ، ثم يبدأ التحليل ، لكلّ كلمة ، ولكلّ حرف !. حين لا يجد الكلام ، يأخذ شارة العين ، وحركة الأصابع ، وشكل الملابس ، والحذاء !. وهنا الصامت لقمة سائغة !. ومع ذلك ، هو حليفه المفضّل . باختصار ، إنه فرويد الجديد !، بل هو ظفر في قدمه !.
قلت له ، عيب عليك !. وبدأ الشتائم ، ثم انقضّ كالثور !.

جلست إلى المائدة شارداً ، لا أشتهي الطعام ، أمرّر قلم الرصاص بين أصابعي ، مستغرقاً أفكر . وأنا كذلك ، فجأة ، انضغط القلم ، وإنكسر !.
لا بأس ، أصبح القلم قلمين !. إن أضعت واحداً ، وجدت الثاني !.

* * *

استطالت أظافري من جديد !.
فاتخذت عادة المرور بأبي ، وأنا أعقد الكفيّن خلف الظهر ، حتى لا ألفت انتباهه !. عند الطعام ، أقلبهما ظهراً لبطن !. لكنه انتبه ، وراح يدقّق !. لمّا لم يظفر بشيء . قال ، أراك في عادة جديدة ، تدعو الله ، أم غزاك التصوّف ؟!. اقلب كفّيك !.
أمر لا بدّ منه !.
قمت بنفسي إلى المقصّ ، أقطع كلّ ظفر ، وألقي نظرةً إلى وجهه المشمئزّ !.
أمي تضحك خفيةً !. ويفتح الثرثار شدقيه ، والصغيران ينقّلان العين منّي إليه ، والصّموت لا يعجبه شي ، يشيح بالوجه جانباً !.
حمل أبي الحقد على أظافري !.
لوعدت للسبب ، لذكرت حادثة الشجار مع سعد ، ابن الجيران ، حين نشبت أظافري في وجهه ، وأسلت دمه . راح أبوه إلى المخفر ، وجاء بالشرطة . كنت في ركن البيت مختبئاً خائفاً ، إذ سمعت الضجّة خلف الجدار !. صعدت السطح لأرى الشرطة يطوّقون البيت ، معهم مكبر الصوت والبنادق ، وكأن عصابةً خطرةً أرست لها مقرّاً هنا ، وها هم الأبطال آتون لاجتثاث الشرّ !. طرقوا الباب فلم أفتح !، مكثت في الركن ، وأنا أرتجف !. أبي في البيت ، قام إليهم مرحباً ، أهلاً وسهلاً تفضلوا . فاقتحموا بأصواتهم الغليظة ، والأوامر ، أين الولد الأزعر ، أحضره حالاً !.
كسرت حاجز الخوف ، وجئت إليهم بنفسي !. فرفع الشرطيّ أصبعه ، والتفت مخاطباً أبي :
هذا الشقيّ !، اعتدى على ابن جاره ، وأسال دمه !.

أردت الدفاع عن نفسي ، لكن الأمر صدر لي ، أن أخرج حالاً ، واختلوا بأبي !.
فمن الجاني ؟!.. أنا أم أبي ؟!.
قبعت دون الباب أسترق السمع ، وأقصّ الأظافر استعداداً ليوم مشؤوم !. وأفكّر ، هل سيلفّقون لي تهمة ؟!. وما عساهم يفعلون ؟! يضعون القيّد في يديّ أم رجليّ ، أم يعصبون عينيّ ؟!، أم أساق ضرباً بالعصا ؟!.
وفوجئت !.
بدل التحقيق ، والبحث في المشكلة ، ألقوا باللائمة على أبي ، وخاطبوه بصوت صارم !. كان أبو سعد معهم ، يبدو أنّه أفرغ لهم جعبته هناك في المخفر ، وأتمّ الصفقة ، ثم جاؤوا لإنهاء المشهد الأخير في المسرحيّة !. لم ينبس أبو سعد بحرف بعد . قالوا له ، اسكت أنت !. ثم نشروا لأبي قائمة الاتهام :
اعتداء وحشيّ ، ودم !.
والضحية في خطر ، أو تعرّض للتشويه ، سيثبت التقرير ذلك !.

أيها المدعى عليه ، مهمتنا توقيف الجناة !، والتحقيق معهم . ولأن الطفل قاصر ، سيء التربية والطباع ، عليه ، يكون وليّ الأمر هو المسؤول أمام القضاء ، لأجل هذا ، أنت المطلوب أمام العدالة . سيجري التوقيف ، بانتظار المحكمة أو السجن !. باستطاعتك ، إن شئت ، توكيل محام ، وإن لم تستطع ، لك الله !.

ارتعد أبي ، وذهب إلى أبي سعد يستجدي خاطره !.

قالوا له ، اترك الرجل ، وكلّمنا نحن ، ألا نملأ عينيك ؟!. الصلح أو التّوقيف !. وتذكّر ، لا صلح دون تعويض !. حتى لو سألت الرجل إسقاط حقه ، ونزل عند طلبك ، سيبقى أمامك شيء اسمه ، الحق العام !. قبل أن تعرف ماذا يعني الحق العام ، أجب على السؤال ، ما عساك تدفع له من تعويض ؟!.

أخرج أبي ما عنده ، من نقودٍ وبضاعةٍ ، متذلّلاً كسيراً ، حتى كاد أن يقبّل أيديهم !. فكتبوا تعهّداً ، بصم عليه بالأصابع العشرة . ثم أوصوه بتربيتي كما يجب :

اكسر له رأسه !.

من الجاني ؟!.. أنا أم أبي ؟!.

لا يتدخّلون إلاّ عند الضرب ، أو القتل ، وسيل الدماء ، يجب أن يروا الدليل بأمّ عينهم ، وهم على كراسيهم ، ويفحصوه باللّحس والشمّ !. ثم ، إن تفضّلوا بالتدخّل ، تصبح المشكلة في وادٍ ، وهم في وادٍ آخر !. من الجاني ؟!. أنا أم أبي ؟!. قدم لهم القهوة والشوكولاته ، ويا ليته لم يفعل ، ثم سار على أذيالهم مودّعاً بالودّ والتبجيل :

مع السلامة !.

وانفرد بي !.

لمحت قبضته في وجهي لمح البصر ، ثم سقطت ، حتى صرت بين الموت والحياة ، أشعر بالرّكل والدعس شعوراً مبهماً محايداً ، لا ألم فيه ، كما لو أني صرت قطعة إسفنج ، يسقط فوقها دفق الماء فتمتصّه !. ثم سطع بدر ضبابيّ ، كان ذاك وجه أمي . لولاها ، تلك اللحظة ، لكنت في خبر كان !. في العالم الآخر ، مع الكواكب والسحاب ، أو مع الملائكة ، من يدري !.

أرجعتني للعالم السفليّ ، وللسفالة !.

ويا للغرابة !..

بعدها ، عاد بطل أفلام الكرتون مظفّراً بالنصر ، تباعاً في المناسبات والأعياد ، وبأظافرَ حادّةٍ معقوفةٍ أشبهَ بالخناجر !. متحدّياً يخفق في فضاء طلق ، وتومض الأظافر خفّاقةً برّاقة ، كما لو أنه ينثر الرياحين ، وينادي :

هيا يا أطفال تلقّفوها !.

* * *

أخيراً !..

قطعوا الكهرباء عنّا !.

ويا للهول ، ذاك المساء حلّ ظلام حالك ، نتلمس الأشياء جسّاً بالأنامل ، ونبحث عن شمعة ، فيما مصابيح الشارع تقذف النور في استعلاء !. قال أبي ، ليفعلوا ما طاب لهم ، نحن لم نُخلق ، وفوق رؤوسنا الكهرباء العظيمة !. ولم نُفطم عليها ، جاءت وحملت معها المصائب !.

صحيح ما قال أبي !،

كثيراً ما ظننّاها عدوّاً ، يلدغ من تحت التبن كالثعبان !.

مرةً ، سمعت أمي تصرخ في المطبخ ، فهرعت لأرى التيّار يصعقها !. ومرةً ، وضعت يدي فوق القابس على غفلة ، وإذا هي تقذف بي مترين !. مرّة ، كانت في حبل الغسيل تلسع أمي !. حرقت لنا الأدوات ، الراديو ، محرّك الثلاّجة ، التلفزيون ، فجّرت لنا المصابيح !.

وماذا بعد ؟!. ماتت امرأة في حارتنا ، وهي تغسل ، صعقاً بالتيار !. ومرةً ، لا أنسى الحادثة ، ركضت مع الراكضين ، لأرى ما يحدث !. كان عامل الكهرباء ، ويا للهول ، معلّقاً بسلك التيّار العالي ، محنيّ الرأس ، مدلّى الرجلين دون حركة ، يصدر منه دخان الحريق !. والمعلّمات اجتمعن في حلقة يبكين . والناس لايدرون ما العمل !. قال رجل ، انظروا ، ما الفرق بين واحدٍ معلّقٍ بالسّلك ، وبين آخرَ معلّقٍ بحبل المشنقة ؟!.

إذاً نحن تحت الخطر !، قرب كلّ ثقب يخرج منه ، من أيّ مكان !.

منّوا علينا بالكهرباء كثيراً جداً !. والنتيجة ، مصائب لم تخطر على بال !. حتى ونحن ندفع الفواتير ، لطالما انقطع التيار ، وغطّى الظلام الحيّ والمدينة ساعاتٍ وساعات !. ثم لا أجد الناس إلاّ يشكون ويبكون !. كأن شكواهم صارت ترنيمةً مقدسةً لمن يطرب !. يغازلون الموت ، ويلقون المدائح لسيفٍ يحصد الأعناق !.

أحبّبت الشمع الجميل ، نلوذ به !. وإن قلنا ، كفى يخبُ من نسمة !. نعم ، له بصيص الضوء ، ولكن ، أن تشعّ الأنوار البهيّة ساعة يرضون ، ونقول ، يا للروعة !. ثم فجأة تنقطع ، أو تعمل لسعاً وتخريباً ، فشيء لا يسرّ ، أليس هو الطعن في الظهر ؟!. والواجب ، كيل المديح دائماً ، بانتظار عين المفتش والجباة ، و هيّا خلق الله ، إلى الدفع ، أحضروا النقود معكم ، لا تنسوا !.

انهمكت في الدرس ، أعمل في مثلث صغير ، عيني والشمعة والكتاب !.
لم أسلم من الثرثار !. قال للرّهط المغطّى في دُجى الظلام ، انظروا إلى الجاحظ كيف يجحظ !. فلم أردّ . وتذكر أبي الفانوس النحاسيّ فأمر بإحضاره !. كان اشتراه من سوق الخميس ، وسميته الفانوس السحريّ !. يطلّ كالبدر المنير في المناسبات !. صحيح ضوءه خافتٌ ، لكنه رائعٌ جميل !.

جاء صراخ أمي من المطبخ ، فهرعت !. هي فوق السقيفة !، وتبحث عن الفانوس . قالت ، إنها تسمع صوتاً بين الرّكام ، لعلّه فأر !.
فكّرت ، ما الحل ؟!. قلت لها ، سأحضر قطّ العجوز حتى يبحث عنه !.
لكنها راحت تسخر . وقالت ، إني أنا الذي أسخر . صاحت ، اغرب عن وجهي ، أو أسقط فوق رأسك المدفأة !. قلت لها ، ذاهب . إن كان فأراً صغيراً فلا بأس ، وإن كان جرذاً ، يا للهول !. عندها نادي عليّ !. وإذا بها تقذف نفسها من فوق !
هرعت إلى الشارع !.

يضيء المصباح حائط البيت ، من خارج . إنه يسخر !. أردت رميه بحجر !. لا أريد لمصباح أن يسخر . يضيء واجهةً ، العتمة وراءها ! .
عدت داخلاً . ومازال أبي يرمّم الفانوس ، صامتاً كليّاً ، قربه الشمعة . فرفع رأسه بنظرةٍ إليّ ، إنه غاضب !. أمي لا تنطق بحرف ، قامت تبحث عن شيء ما ، ولبثت في الغرفة الثانية ، ترتّب الثياب . هنا أخوتي صامتون !. والصّموت ، كدّس الظلام عليه صمتاً على صمت !، جامداً عيناه في الأرض !. ونطق الثرثار فجأة : الحمد لله ، امتحان الكفاءة انتهى ، وإلاّ كنا انفجرنا !.

أبي يرمّم المصباح ، تضيء له الشمعة !.
أخيراً ، اكتشف أن الفتيل وصل النهاية ، ولا يلمس سطح النفط !.
لا فتيل آخر !. قال سمان الحيّ ، انقرض هذا الصنف في عداد ما انقرض يا صاحبي !، وأكّد لأبي ذلك ، لن تعثر عليه ، حتى وإن درت بلاد السّند والهند !.

عاد أبي ينفث الغضب !. وقذف الشمعة بعيداً !. هناك استلقت المسكينة أرضاً تلهث !. لم تنطفئ بعد !. ركضت وألقيت همسةً عليها فخبت . ولكن لماذا يجب أن تخبو ؟!، عدنا للظلام !.
وأضأتها !.

أريد رؤية الصفحة ، أريد أن أكتب !. والثرثار من كل شيء يسخر !.
قال ، على الأقل ، يضيء الفانوس أكثر من شمعة ، وهذه ، كالحشرة تضيء بذيلها ، لا أكثر !. ما اضطرني للردّ ، قلت له ، الشمعة طفلة ، والفانوس أبوها !. هل فهمت ؟!. فالتفت صوب الرّهط :
ماذا يقول هذا ؟!.

حاولت الشرح له ، كيف يرسم بصيص الضوء ظلّاً في مكان ما ، ويكشف جانباً ، أو يخفيه ، ليبدو أكثر جمالاً !. قلت له ، اقترب ، وأنظر ، من هنا ، إلى وجه أمي ، لترى بأمّ عينك !.
كان ردّه ، أن فجّر للرّهط ضحكةً فاقعة !.
لم يضحك اخي المناضل ، لاحظت عليه التأثّر صامتاً يصغي !، يفهم ، في قرارة نفسه ، ما أقول !، لم تطأ قدماه المدرسة ، لكنه يفهم !،

أذكر يوم سقط مريضاً ، وزاد المرض عليه حتى أقعده ، فلبث مسجّىً في الفراش فترةً ، لا يقدر على الكلام !. لا مال عندنا للأطبّة والدواء ، وقال أبي ، اتركوه ، الله يشفيه !.

ساعة خلوت به ، والرهط خارج الغرفة ، اغتنمت الفرصة حتى لا يسخروا ، فجثوت عند رأسه ، أبحث عن شيء ما يرسم ابتسامةً على شفتيه :

يا حبيبي !..
يا عزيزي !.
قل لي ، ما ألمّ بك ؟!..
تشعر بالسخط ، بالحسرة ، بالألم ؟!.
ما أصابك ؟!.
لو كنت ثوراً يثور !..
أو بغلاً يدور !..
حصاناً في درب الدخان ،
دميةً في يديك ،
حذاءاً في قدميك ،
حتى تقف على رجليك ، وتمشي !.

فرأيت ابتسامةً تطفو عليه ، وواصلت الكلام حتى بكيت ، وجدته كذلك يذرف الدمع !. كانت لحظة البداية ، وبدأ ينبثق الأمل ، استعاد النشاط يوماً بعد يوم ، ثم وقف على رجليه !. مازال يذكر تلك الحادثة ، ويقول ، لا أنسى ما قلته لي يا لعين !.

ظلّ الصموت مطرقاً يهزّ برأسه ، ويحشد الثرثار الحجج ، حتى يسفّه قولي ، ويسخر !. والآخرون يضحكون ، حتى الصغير قال ، مصباح الدراجة أفضل من الشمعة والفانوس !. قلت له :
معك الحق !.

ثم فجأة ، انفعل أبي ، وصرخ يوزّع الأوامر :
هاتوا !.. اذهب أنت .. أحضر الكمّاشة !. وأنت ، أحضر السلّم !. هاتوا !.. الشريط اللاصق ، أين وضعتموه ؟!.. عليكم اللعنة !.
أحضرنا له ما أراد ، لنرى ماذا يفعل الرجل !. ونحن نتبادل الهمس والثرثرة ، صرخ فينا : اخرسوا !. وجّه الكلام إليّ خاصّةً ، هل رأيت الموظّف ، وكيف يعمل ؟، ستصيرون مثله مستقبلاً !.

وشعرت بانزعاج !.
هذا التوبيخ !. لماذا ؟!. هل صرت الموظف أمامه ؟!. وثبت أسند له السلّم ، وقلت في نفسي ، ماذا أصاب الرجل ؟!.
صعد السلّم والحائط حتى كهرباء الشارع ، وعلّق الشريط ، فأعاد التيّار رغم قرار الحكومة !.

وفي الصباح فوراً ، وصل التفتيش !..
فتح أبي الباب ، كان المفتش بصحبة الشرطة ، وتلا عليه أمر المهمة : أيّها المواطن ، أنت تسرق الدولة ، أقبض عليك باسم القانون !.
قال أبي : نحن لا نستهلك بخمسة آلاف ، ولا خمس مائة !.. أنتم السارقون !.
فأطبقوا عليه بأيديهم ، وجرّاً إلى السيّارة !.

وانطلق الصراخ !..
ذهبت أشدّ الشرطي الماسك رأس أبي من جيبه ، وأضرب له مؤخّرته وأصرخ !، لكنّ رفسةً أبعدتني مترين ، وألقتني أرضاً ، لم أقدر على النهوض . أمي تبكي ، بينما أخوتي يطلقون السّباب !. ثم انتبه العجوز للضوضاء ، فخرج بالعكاز معترضاً سبيل السيّارة ، ينقر العجلة ، ويصرخ :
اتركوا الرجل !، ليس بسارق !، اتركوه !.

ودارت العجلة بطيئاً ، بطيئاً ، حتى أخلى العجوز الدرب ، وانطلقت !.

جاء ، ومدّ لي يداً كي أنهض !.

* * *

أسبوعان ، وأبي يقبع في السجن !. استطالت أظافري !.
انتبهت لي أمي ، وقالت ، لعلك أصبت السعادة !، والدليل ، أظافرك !. ألا تريد اصطحابنا في زيارة السجن ؟!.

اصطحبتها إلى جارنا العجوز ، بكت عنده ، وراحت تطرح الأسئلة :
- هل يعذّبونه ؟!.

قال العجوز :
- وماذا فعل يا ابنتي حتى يعذبوه ؟!. آلاف الناس في السجن بسبب الماء والكهرباء !.
- قال لهم ، أنتم السارقون !. هل يفتعلون له مشكلةً سياسيّة ؟!.
- لا تخافي يا ابنتي ، لا تخافي !. سيرجع إليكم ، إنشاء الله .
- أحتاج للنقود !. أريد بيع الخزانة !.
- أقرضك بعض النقود ، لا تبيعي الخزانة !.

اليوم التالي !،
حملت للعجوز طبق الحساء ، كان مسترسلاً يقرأ في كتاب ، ثم رفع صوته بقطعةٍ شعريةٍ ، قال ، هذا من الشعر الصوفيّ ، اسمع !. كان صخب العصافير يملأ المكان ، والقط أقعى يرنو إليها ، ويموء مواءً متقطعاً رقيقاً . ثمّ تحرّك من عرض الباب ، صوب الشجرة !. وقام العجوز لصنع الشاي . قلت له ، دعني أفعل !. قال :
- أبداً ، أنت ضيفي ، أيها الفارس !.

وقفت في عرض الباب ناظراً إلى السماء !..
كانت تهبّ نسائم رطبة ، ظهيرة يوم قائظٍ حارّ !. فيما يموج السراب ، ويمخر في فضاءٍ غائرٍ مديد ، بدءً من فوق حائط الدار ، وحتى أقصى الأفق !.
استلقى القطّ على أرجوحة تهزّ به ، عينه على عصفور بين الأغصان لا تحيد ، يموء مواء الشهوة ، ويقفز برأسه حيث يقفز ، فيما تراوح الأرجوحة مكانها ، في مسافةٍ صغيرةٍ ، تحت بقاع الشمس والظلال .
مازال العجوز يعمل الشاي ، ويلفظ كلام الشعر متقطّعاً مبعثراً !. كنت شارداً ، وثائرتي تركن للهدوء !.
أخذت جرعة الشاي ، وسمعت العجوز يقول ، إنّه ذاهب إلى سوق الخميس ، إن كنت راغباً باصطحابه .
لقد قرّر بيع موقد النّفط القديم ، قلت له :
- أحتاج لإذن أمي !.
- اسألها !.

ثم أطرق يفكّر ، قال :
ولكن ، لماذا يجب بيع الموقد ؟!. كم سيدفعون به ؟!.. خمسين ليرة ؟!. لا أريدها . أحتفظ به أفضل !.
كما أشارت عليّ القبيلة ، نظفه .. عطّره .. واصمده في الخزانة !.
- يا صاحبي الصغير !،
لو كان لك صديق مخلص ، عشت الحياة معه ، بحلوها ومرّها ، تجده وقت الحاجة ، لا يرفض لك طلباً !.
وإن فاتك النوم واساك ، أو صحوت مجفلاً تحت براثن الكوابيس ، شاطرك الأرق والعذاب ، يغلي لك الشاي والبابونج ، ويرجوك أن تهدأ !. فهل تلقيه للزبالة ؟!، أو تبيعه بثمن بخس ، آخر المطاف ؟!.
قلت له :
- لا !.

قال :

- حتى وهو يدخّن ، ماذا يهمّ ؟!. كل شيء يدخّن ، الناس ، السيّارات ، الدرّاجات ، المصانع . لماذا نريده ملكياً أكثر من ملك ؟!. نغمض العين عمّا يدور حولنا ، كي نحدّق به ؟! هل انتظرنا عمراً بحاله ، حتى ننتبه له آخيراً ، ونلقي اللّوم عليه كلّه ؟!.
- لا !.
- اسمع ، هو صاحبي ، وأنت صاحبي ، وصاحبي صاحبك ، ولأنك صاحبي ، فأنت صاحب صاحبي !. نحن الثلاثة أصحاب ، في السّراء والضّراء ، مفهوم ؟!. وإن ، ذات يوم ، احتاج أحدنا الآخر ، فيجب أن لا يخذله ، حتى وإن قصد بلاد الهند والسند ، حتى يحضر له لبن العصفور !. موافق ؟!.
- نعم !.
- إذن ، لن أبيعه ، وإن أردت بيعه ، فلا توافق . موافق ؟!.
- نعم !.
- بوركت !. أن تدافع عنه ، يعني ، أنك تدافع عني !. وتدافع عن نفسك !.
- نعم !.

حين تركت العجوز وغادرت ، كانت هذه ال ، نعم ، تنساب على لساني !..
نعم !..
نعم !..
نعم !..

صار للعجوز موقد جديد !.
حدث ذاك يوم العيد ، حيث جاءت قبيلة الأبناء والأحفاد ، وجلسوا يمزحون معه !.
قالوا له ، يا جدنا !. ألم تتعب من الطبخ والنفخ ، على موقدٍ عتيقٍ مهترئٍ ، ينفخ الروح ؟!، كأنك ، يا جدنا ، تمتطي حماراً هزيلاً أعرج ، وآن لك أن ترتاح !.
قال لهم ، نعم ، تعبت ، وتعب الحمار معي !. تعبنا معاً ، وجاء وقت التقاعد ، حان الأجل !.
قالوا له ، إنشاء الله ، بعد العمر الطويل . ما زلت شاباً !، وعليك ، يا جدنا ، أن تعترف !. نعم ، تعبت !، ولكن من قال لك ، إن الموقد يتعب ؟!. يتعب بلداً بحاله ولا يتعب !. انظر ، كم جيلاً أتعب ، ألم يكن لأبيك من قبل ؟!. وقبلها كان لجدّك ؟!. لم يتعب !. نعرفك تحبه !. أعطاه الله العافية ، أدّى ما عليه من واجب ، وكفى !، نظفه !.. عطّره !.. واصمده أيقونةً في الخزانة !.
يا جدنا ، بالله عليك ، لو كان لك فرس جامحة ، أليست خيراً من حمارٍ هزيلٍ أعرجَ ؟!.

لفظ العجوز آهاً طويلة !،
- آه لكم !، أيها الجيل الطالع !. ما العمل معكم ؟!. وهل الفرس بحاجةٍ لواحدٍ مثلي ؟!. إنّ أقصى ما تصل إليه قدمي ، سوق الخميس !.
- يا جدّنا !، لا تقلب المعنى ، أنت من بحاجة للفرس !.
- اسمعوا يا أولاد !. بحاجة ، أو سواها ، إن كانت الحاجة تستدعي الإخلاص ، أخلصت لما بي حاجة له ، يعني ، أن أحبّ الشيء ، فالشيء مخلص في حبّي ، إن كان فرساً ، أو حماراً ، أو غير ذلك . ضعوا هذا المثل في رؤوسكم الصغيرة !. أما سمعتم بفارس سقط في معركة ، فوقفت فوق رأسه الفرس تبكي ؟!، وآخر ، ألقته الفرس عنها ، وولّت الأدبار ؟!.
فكرة ، وحدة الكون ، هل سمعتم بها ؟!.

تلفتوا شمالاً ويميناً !..
فضحك العجوز :
- أين أذهب بالفرس ؟!.
- حيث تذهب !. إلى سوق الخميس !. لم لا ؟!.

فضحك أيضاً ،
- غلبت على أمري !. كما قيل ، ما جادلت عالماً إلا غلبته ، وما جادلت جاهلاً إلاّ غلبني . خسرت ، فماذا تأمرون ؟!.
- نأمر بإحضار الصندوق من السيارة !.

وجاء الصندوق !.
- تفضل ، هذا هو الموقد الجديد !.
- ولكن يا أولاد ، ما هذا الجبل العالي ؟!، أربعة أفواه تطلق النار ؟!، هل أحتاجها ؟!. ألا يكفي واحد ؟!.
- لا يكفي !. هذي أربعة أحصنة ، أمام العربة المبجّلة ، وأنت القيصر !.
- أحتاج لأربعة ، مع فرن ؟!.
- طبعاً !، بحاجةٍ لأربعة مع فرن !، حتى يكتمل النصاب . بربك ، هل تسخر ؟!، هل نسيت القبيلة ؟!. والأفواه المشرّعة وراءك ؟!. كيف تقدّم لها الطعام ؟!.
- تحضر القبيلة طعامها معها ، لست مطعماً !.
- لنفترض !. وجاء الطعام ، والأفواه تنتظر ، فأين ما تسخّن به ، وتشوي ؟!. وكم رأس نار تحتاج ؟!. إن سألك أحد ، هل أنت ، العجوز ، بحاجة هذا الموقد العظيم ؟!. قل له ، نعم يا صاحبي !، إن ورائي قبيلةً !.
فضحك العجوز !،
- حسناً ، غلبت على أمري . ولكن ، كيف يعمل هذا الشيطان ؟!.
- تصل شريط الكهرباء ، وتضغط الزرّ !.
- ولكن ، أين الكهرباء ؟!، أصوم ساعات كلّ يوم ، لا بداية لها أو نهاية ؟!. كأنكم هبطتم من كوكب آخر ، على طبق طائر !.
- مفهوم . صاحبك يعمل بالغاز أيضاً . انظر إليه ، الأناقة والجمال ، مثل عارضة الزيّ ، لا سمّ ولا شحّار !. بالله ، كيف تتطّف أعقاب الأواني من الشحّار ؟!. ارحم رئتيك قليلاً ، وارحمنا !.
وضحك العجوز !،
- حسناً ، غُلبت على أمري !. هل باستطاعتي ، الآن ، الراحة ؟!.
- لا غالب ولا مغلوب !. وحدة الكون ، وكلنا انتصرنا !.
- لا غالب إلاّ الله !.
- الآن غلبتنا !.
هيا يا أولاد ، لنترك جدّنا العزيز يرتاح !.

*

والآن ، يقبع الموقد النحاسيّ المتقاعد في صدر الخزانة نظيفاً معطّراً !.
لم يلغ العجوز فكرة السوق . أخذ الإذن لي . وقال ، من بداية الطريق ، إن كنت لا تقدر على السير سنركب سيارةً . رنوت إلى حذائي الرياضيّ ، يقول لي ، اركض !. حتى أبرهن للعجوز أن في مستطاعي الركض ، ركضت ، وناديته :
- من يحبّ السير أكثر ؟!.

سرت وثباً أركل الحصى من شمال إلى يمين ، ثم انسحب للوراء ، كي أنقضّ كرّاً من جديد !. فوقف العجوز معجباً بي !. لكن التعب اعتراني ، ومشيت بالكاد خطوةً خطوة !
قطعنا مسافة الضاحية المقفرة ، وانتهينا في العراء ، حيث لاح ، من بعيد ، أعرابيّ مع كلب كبير يتقدّمان !. فكرت ، حتى أتحاشى الكلب ، سأرجع ، وأمشي وراء العجوز !.
حين اقترب بلسانه الأحمر المدلّى ، مصوّباً عينيه إليّ ، درت حول العجوز نصف دورةٍ ، واحتميت به !.
قال العجوز ،
- لا تخف !. الكلب يحب الأطفال ، وجاءك للتحية !..

فوقفت ، لم أخف . وفعلاً شمّني والودّ في عينيه !. فيما راح العجوز يبادل الأعرابيّ السلام . والسؤال عن حاله ، ثم سرنا !.
ظللت ألتفت إلى الكلب خلفي ، وهو يثب في سرعةٍ وخفّةٍ ، شمالاً ويميناً ، مبعثراً الحصى مطلقاً الغبار ، ويرتدّ كالصاعقة ، ثم يعود أدراجه ، ويكرّ من جديد !.
قال العجوز :
- انظر ، يقدّم عرضه الرياضيّ احتفاءً بك !.

هززت للعجوز رأسي !.
ثم بزغت شاحنة تطلق الدخان الكثيف ، وتحصد زوبعة الغبار لتسدّ بها الأفق . هنا ، اشمأزّ العجوز ماسكاً بيدي . وقال ،
- أين المفرّ ؟!. أغلق عينيك ، واحبس أنفاسك !.
لم أستطع حبسها طويلاً ، حيث تدفق الدخان والغبار في أنفي وفمي ، واختلطا باللعاب ، وشعرت أني أختنق ، أخذت أبصق في سعال جارف ، والعجوز يربّت فوق ظهري !.
حين تراءت لنا شاحنة ثانية ، أوغل العجوز بي بعيداً ، دون الطريق !.
تعلّمت الحيلة منه ، إذا أردت البحث عن درب نظيفة ، وقت الخطر !. أستبدل المكان بآخر ، وألج المعابر !. اليوم ، صار الأمر صعباً !. تحفّ بنا السّموم ، ولا نجد من دونها موئلاً !.

في السوق .
سرت بطيئاً بخطى العجوز ، وكان يقف ، من حين لآخر ، متكئاً على عكازه ، يمعن النظر في الأشياء المكدّسة بعضها فوق بعض . أحاول معرفة ما يشدّ انتباهه ، وألاحق عينيه من البداية مروراً بخطّ النظر ، فالمنتهى ، حيث يحدّق متأملاً ، لأجد ما يستحقّ الإعجاب ، من رسوم الخزف الصينيّ ، ومصابيح نحاسية قديمة ، أو أواني من زجاجٍ ملوّنٍ !، كراسي من قصب وقشّ ، ملاعق فضّةٍ ، بالمقابض مرصّعة الأشكال !. حتى وصلنا مكان اللوحة !.
مازالت الفتاة ذات الشال تنتظر من يشتريها !. فحدّق بها العجوز ، ثم ضرب عيناً عليّ ، وعاد للوحة !. فالتفتّ جانباً ، وأنا أحاول منع ابتسامة متدفقة !.
وقد فهم العجوز ، قال لي :
- لندخل محلّ صديقنا العجوز ، حتى نسلّم عليه !.

تبادل العجوزان السلام ، هما على معرفة قديمة !. ودار حديث الذكريات ، فأعطى صاحبي العجوز أذناً صاغية !. وأخيراً تذكّرا أني هنا ، فقال صاحبي :
- هذا جاري ، وصاحبي الصغير !، يحمل لي طبق الحساء ، ويقصّ عليّ القصص . وحسبما أظنّ ، يحب الرسم ، والأرجوحة ، والله أعلم بما يحب !.

قال العجوز البائع : لعلّي صادفت الطفل !. ألست ، أنت ، أيها الصغير ، أردت شراء اللوحة ؟!. فالتفتّ جانباً أبتسم !. وقال صاحبي ، هو ، بلحمه وشحمه !. والآن نريد اللوحة ، فلا ترفع السعر علينا . قال البائع ، لأجلك ، لا أريد ثمناً !. قال صاحبي ، بل سندفع ، إن أردت المشاركة في هدية الرسام الصغير ، تسقط الربح أنت ، وأدفع الباقي أنا !.
- موافق !.
- كم ؟!.
- خمسين ليرة !.

والتفت صاحبي يهمس لي ، هل أعجبتك المناقصة ؟!. فلويت برأسي أبتسم ، ثم رحت أضحك لمسرحية حاكها العجوزان ، ما أصاب العجوزين بالعدوى ، وانهمكا يضحكان قهقهةً !.
شعرت بفرحة غامرة ، صار لي تحفة لا تقدر بثمن !. وقفت أتملّى خيوط اللون وهي تنساب على الأصابع والذراعين والشال ، والوجه يفيض جمالاً !.

وانهمك البائع العجوز يحكي قصة اللوحة !.
كانت لامرأة اشترتها مع ما اشترت في أسفارها . وكان بيتها يعجّ بالتحف ، والأثاث الجميل . حين جاءها الأجل ، عاد الشباب من الغربة ، وفرّقوا ما عندها ، أو باعوه بسعر بخس ، ثم غادروا !.
والآن يا صاح ، يريدون إخلاء السوق . افتعلوا كلّ حيلة خبيثة لطردنا . تنكروا لحقّنا ، وللعقد ، لكلّ شيء !.

قال له صاحبي ، وأين القضاء ؟!.
ردّ العجوز ، القضاء ؟!. قل ، أين القضاء والقدر ؟!. رحم الله القضاء !، كان له عهد ومات ، حياتك الباقية !. أدخلوا نسوةً فاجرات ، ورجالاً من البلطجية ، للتحرّش بهن !، وصوّروا الصور ، ثم نشروها في الجرايد ، قائلين ، صار السوق مرتعاً للفجور والعصابات ، ويجب إغلاقه حالاً !.
وتقول ، أين القضاء ؟!. رحم الله القضاء !.

الفتاة تبتسم !،
تلقي السبابة فوق أختها وتبتسم !.
لكنني فجأةً حدّقت بعينيّ صوب حريق يشبّ في صدر السوق ، ويحاول الناس إخماده !. ثم خرج انفجار هائل ، وأخذت ألسنة اللهب تمتدّ !. وانطلق الصراخ ، قناني الغاز تنفجر !.
هيّا !.. هيّا !.
اندفع طوفان الناس في المعابر ، وطؤوا الأشياء ، فأضحت حطاماً خلفهم . باقترابهم من لوحة الرسم ، في اللحظة ، رميت بنفسي لأخذها ، لكن العجوز انتشلني حملاً ، وانطلق وسط الزحام . وأنا أصرخ :
- اللوحة !.. اللوحة !.
بفعل التدافع والخوف ، تعثّر العجوز في سيره ، فسقطت من بين يديه ونهضت ، ثم سقطت ونهضت ، ثم فقدت الوعي كليّاً !.
صحوت محمولاً أرى الكارثة ، والنار تئزّ بلسانها الطويل ، وتلتهم السوق ، والناس محتشدون وصامتون عاجزون !. ومرّر العجوز كفّه فوق رأسي !.
- هل أنت بخير ؟!.
- نعم !.
- هيا ، اهبط أرضاً إذاً ، أتعبتني !.

ما إن وقفت ، حتى شعرت بقوّةٍ هائلةٍ ، واندفعت كالسّهم ، أصرخ ، اللوحة تحترق !. فصرخ العجوز ، الولد ، امسكوه !. فأمسكوا بي !. قلت له :
- اللوحة تحترق !.
- وماذا يعني ؟!، تريد الاحتراق معها ؟!.

فوقفنا عاجزين !. صرخ العجوز فيهم :
- أبلغوا الإطفاء !،
- أبلغنا !.
- اذهبوا إليهم ، على بعد أمتار !.
- ذهبنا !.
- اصرخوا !.
- صرخنا !.

حين صار السوق رماداً ، وصل الإطفاء !.
هبّ الناس يصرخون فيهم ، أنذال ، جبناء !. لكنهم ، بدل أن يوجّهوا مدافع المياه صوب النار ، وجهوها إلينا !.

* * *

عادت أمي من زيارة السجن وهي تبكي !. قالت ، إن أبي قد هزُل واصفرّ !. رأته ، من بعيد ، خلف القضبان ، كان الصخب هائلاً ، والزوّار يخاطبون المساجين بالصراخ ، فراحت تصرخ ، ولم تفهم منه شيئاً ، ثم انتهت الزيارة !.
خيّم الوجوم على أخوتي !. حتى الثرثار لاذ بالصمت ، لم ينطق بحرف !.

خرجت أقطع الشارع ماشياً صامتاً ، الغصّة في صدري ، فوق رأسي غيمة ضخمة سوداء !. وانهمر دمعي ، كانت عصافير الشجرة جامدة لا تغرّد !.
يلوك الناس القصّة في شماتة !، بل تزيّد بعضهم كثيراً ، لا أعرف من أين جاءهم هذا الزّيف ، والدسّ الفظيع !. كيف تفتّحت قريحة الخبث فجأة ، واندلق السّخام !. وضح الفارق ، بين الخصم والصديق !. لم تسنح الفرصة من قبل ، وهي الآن تسنح !. حكم اللئام جاهز ، يحدوه قرمٌ مبيّتٌ بغيضٌ لمضغ لحم الضحية !.
سمعتهم !،
نحن السارقون ، في رأيهم !. ولقمة الفقراء تغتصب ، نحن السبب !.

وسعد ، البريء !، بدل أن يقول هذا ، قال ، إنه ينقل ما يدور على ألسنة الناس فقط !.
دافع عني الصديق ، وقال للسعد ، بل السارقون أصحابك !، من لا يدفعون فاتورة أبداً ، وفي أيديهم المال والقصر والسيارة !. أجاب آخر ، اسكت !، كلنا نعرف !. فقال سعد ، لا أعرف من هم هؤلاء !.
كان هرّ العجوز يمرّ فوق الحائط ، فحمل السعد حجراً ، وسدّد ضربةً إليه لم تصبه !. فاقتربت منه ، وغرست أظافري في عنقه !.
- لماذا تضرب القطّ ؟!.
- وما شأنك أنت ، ليس قطّكم ؟!.
- ليس قطنا ، ولكن ، أجبني ، لماذا تضرب القطّ ؟!.
- لا شأن لك !.

وغرست أظافري أكثر !، فأطلق صرخةً ، لم تطله إلاّ خمشة صغيرة !. وأبعده الأولاد ، أخذ يوزّع الهمس عليهم ، فهاجمته !. لكنهم زعموا أنه يقول الخير عني !. ظللت أرنو إليه ، حتى أدار ظهره ، ومضى !.

لا أسمع العصافير !.
لا رغبة لي في التحدّث مع أحد !.
الوجوم يملأ بيتنا والحزن ، أخوتي صامتون !. وأمي لا تفتح قلبها إلاّ لجارتها العزيزة !.
حاولت العبث معهم ، فأطفأت الشموع ، ورحت أنكش كلّاً منهم في رأسه ، وأضحك !. لكن أمي وجّهت إليّ تهمة العبث ، واللامبالاة !. دليلها ، أظافري الطويلة ، وهذا المرح المشبوه !.
قلت لها ، لو أن الصموت أو الثرثار قالا هذا لأريتك ماذا أفعل !. لكنك أنت القائلة ، فما عساي أفعل ؟!. لاشيء !. ما عليّ سوى السجود للحزن ، أو التضرّع إلى السماء !. دعيني أفعل شيئاً !. لا !. أعمل في بيع الدخان !. لا !. ماسحاً للأحذية ؟!. لا !. بائعاً للعلكة ؟!. لا !. للمخدرات !..
وراحت تصرخ !. قلت لها :
- كيف نعيش إذاً ؟!. من أين نأكل ؟!. هل أحرق نفسي ؟!.
- القرار عند أبيك ، هل تفهم ؟!.
- أفهم !. القرار عند أبي ، وأبي في السجن !. سجنوا القرار معه !.

لا أريد سماع العصافير !..
لا أريد التحدّث إلى أحد !.
قال العجوز ، والآن أفكّر بما قال ، كلّ شيء تعرفه الحكومة !.. وكل سيّئة تستمرّ ، تريد لها الحكومة أن تستمرّ !. تجني الأرباح وتتنقم !. تلقي عن نفسها المسؤولية بالدسائس والتحريض . لتضحك !. هذا هو عملها !. ولا تكتفي !. لها شهيّة جبّارة لا تشبع !.
طرح سؤالاً عليّ ، أجاب عليه بنفسه ، من هي الحكومة يا بنيّ ؟!.. هل تعرف ؟!.. هي واحد !.. اثنان !.. ثلاثة !. وفيما عدا ، عبيد وخدم !.
انطمر الحيّ تحت الزبالة !. حاوية القمامة تختفي !. لم يبق شيء أمامهم إلاّ حاوية القمامة !. من المسؤول ؟!، العبيد !. والعبد لا يدير دولةً يابنيّ !. الخادم يقبّل الأيدي لا أكثر !.

قطعوا الشجرة الباسقة عند طرف الطريق !.
لم يعد للعصافير مكان في حيّنا ، تمرّ محلّقةً في الأعالي ، لا نسمعها !.
يحبوننا !.. يحفرون خنادق الترميم والصيانة ، بمياه الصرف والرائحة الكريهة ، طول الطريق وعرضه ، لأشهر أو سنوات !. تطلق صنابير الماء الشحيح الصفير في قوة !. أفسدوا الماء حتى صار غاضباً ملوّثاً ، له أظافر تخمش الأرض والسقف والجدران !.
احتلّ الصفير مكان صوت العصافير !.
النصائح تهطل كالمطر . يجب الوقاية ، أيها المواطن . الصحة غالية !، والطبيب في خدمتك !. من هو ذاك الطبيب المتقعّر !. المتشدّق بالنصائح العظيمة ؟!، يحفظها عن ظهر قلب !، ألا يكلّ ؟!. ألا يملّ ؟!.
صار جانب الطريق المحطّم فخّاً ، هوت فيه شاحنة ، وسحقت بيتاً دون رحمة ، لولا أن تواطأ القدر مع أهله ، وأبعدهم لحظة الكارثة ، لانسحقوا !. تلك المصائب أليس لها طبيب أو نصائح ؟!. لا يأتي على ذكرها الوعّاظ والحكماء والفقهاء أبداً ، بعداً للفتنة ، حفظاً للأمن والاستقرار !.
والكهرباء ؟!.

أين العصافير ؟!. هذا زمن الصفير ، والصراصير !.
صفير الماء !.. صفير أصحاب الطيور !. الحجارة ، وقطع الأخشاب ، فوق رؤوسنا ، فوق وبيوتنا ، يرموننا بها ، حتى تحلّق الطيور الجميلة عالياً !. حتى تدجّن !.
وإن اشتكى أحد يا ويله !. يسخرون منه ، يوبّخونه !. ماذا تريدنا أن نعمل ؟!.
أو يفتعلون لك مسرحيةً !. لتلعق جراحك ، وتبتلع المهانة !. وتخرس !.
والبلع والهضم ، من تحت لتحت ، على السكت !. قال العجوز !. الآن أفكّر فيما يقول !.

أين العصافير ؟!..
قطعوا لها الشجرة !.
حسناً ، سأصعد الجبل !. لعلّي أسمع شيئاً ما ، أو أرى !.
إنّي هنا أقرب للشمس والسّماء !. للريح التي تسفّ الغبار !. ألوي صوب المدينة المنكفئة ، كطبق الحلوى ، عند قدم الجبل ، غطّته الزبالة !. طبق الحكومة المفضّل !.
البيوت المتكئة ، بعضها على بعض ، بصمت وخوف ، كالمقابر والأشباح !.
تطحن الآلة ، في رحاها ، الجمال والبشاعة !، قال العجوز !.

صمت ، قيظ ، غبار !.
لأحرّك شيئاً ما ، ركلت الأرض ، أثرت الغبار !. أتبعته ركلاً وركلاً ، لأرى الريح عاصفةً تسوق السحب ، تحجب أرضاً وسماءاً ، لم أعد أرى !. وهويت في أقصى سرعة ، أنبش السّفح تراباً وحصىً ، أمدّ الغطاء ، وأصرخ :
طيري !..
أيتها العصافير ، ارحلي !.
أيتها الكلاب النابحة ، لم النباح ؟!، اخرسي !. اللصوص بيننا !.
ويا أيها المغنون !. الصمت !.. رجاءً ! .
الشعراء !. لا نفهمكم ، آسفون !.
الخطباء !..
صه !.. أبي في السجن ، وأنتم تركعون !.

أبي !. دعك هناك أفضل ، وابصق على الجلاّد ، لا شيء هنا يسترعي اهتمامك !. أظافري استطالت ، وحين ترجع ، سنبدأ باتفاق جديد !.
الأظافر !.
ترك المدرسة !.
العمل !.
إن أعجبك أعجبك ، أو بيني وبينك الشارع !.

وصلت بيت العجوز ، وأنا أجهش في البكاء !. فخفّف عني :
يا عزيزي الصغير !.. كفى تبك !، ظننتك رجلاً ، لا تبك !. أبوك راجع لا محالة !. لحظة !. سأقرأ لك من شعر الأطفال ، عندي باقة منه !. موافق ؟!. سترسم لي لوحةً جميلة ، موافق ؟!. امسك الحبل ، وشدّه !.
واسمع !، العصفور يغني !.
تعال !..
هذي باحة الدار ، وهذه الأرجوحة ، والشجرة !، هيا امسك الحبل ، شدّه وارتجح . سأعدّ لك الشاي ، ثم نتحدّث !.
كان القط يلاحق الأرجوحة ، والعصفور يغني ، والهواء يمزج معاً ، رائحة الورد الجوريّ والبرتقال والزبالة !.

انتهى

دمشق/في 29-6-2001 عمان / في 31-3-201 القاهرة/ في 31-5-2011